

مختارات فصول



الهيئة
العلمية
العامة
للكتاب

١٣١

نوننة الشحنونة

سلوى بكر

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

قصص

العدد (١٣١)

DL

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. سمير سرحان

رئيس التحرير
سامي خشبة

مدير التحرير
حسن سرور

المشرف الفني
صبري عبدالواحد

١٠٠

الغلاف للفنان
يوسف شاكسر

إهداء 2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

سلوى بكر

نوننة

الشعفونة



المنشأة للنشر والتوزيع

١٩٩٩

نونة الشعنونة

ماعداء أبيها وأخوتها ، والضابط ، وزوجته وابنه ، لم يعرف نونة ، عند سؤال النيابة ، سوى أربعة لا غير ، حسنين بائع الخبز ، وفتيح البقال ، والكواء سالم ، ثم الزبال ، الذي اكتشف ، عند استجوابه أنه لا يعرف ملامحها أبدا ، لأنه - على حد قوله - كان مشغولا دوما بالنظر الى صفيحة الزبالة ، لما كانت تناوله اياها ، لافراغها في قفته كل صباح .

ولقد تضاربت أقوال الجميع في مسألة ملامحها ، فبينما أكد الضابط أنها ذات أنف أفطس ، وفكها العلوي بارز الى الأمام قليلا ، أجابت زوجته النيابة ، متسائلة : وهل كانت لها ملامح ؟! ، وأضافت : « كانت بنت شعنونة جدا ، وغريبة الأطوار » . أما أبوها ، فاكتفى بان قال ، وهو يجفف دموعه : « كانت عروسة كالغلة ، وبنت ولا كل البنات » ، وليثبت للحكومة صدق قوله ، أخرج من الجيب الداخلى لجلبابه قرطا ذهبيا صغيرا ، له خرزة زرقاء ، كان كامل المهر المقدم من العريس ، الذي لم تره أبدا .

حتى نونة نفسها ، لم تكن تعرف ملامحها جيدا ، أكثر مما تعرف أن لابن الضابط شعرا أسود جميلا ، كشعر أمه ، وأنفا ضخما يشابه أنف أبيه ، ما عدا أن أنف الأخير ، تتناثر عليه نقاط سوداء صغيرة ، لاحظتها مرارا ، كلما انفعل فزمه وضمه ، وهو

يهتف بصوت ميت ومخنوق من الضحك ، لصاحبه الذى يلاعبه
الشطرنج : « كش ملك » .

وعلى أية حال ، فالبنت نونة ، لم تكن تشغلها مسألة
شكلها ، الذى كانت تراه منعكسا على صفحات المرايا كثيرا ، سواء
فى حجرة نوم الضابط وزوجته ، أو فى حجرة الولد ، ابنتهما ،
عندما تدخل الحجرتين لتنظيفهما ، وترتيبهما ، على وجه السرعة ،
حتى لا يروح الوقت ، وتنقضى ساعات المدرسة . لكنها كانت تختطف
لحظات سريعة تبحث فيها ، من جديد ، عن « انسان العين » ،
الذى لم تصدق أبدا وجوده . مع أن المعلمة أكدت ذلك ، مرارا ،
وتكرارا ، وكل مرة ، كانت تقف على أطراف أصابع قدميها ،
وتشرئب بقامتها القصيرة ، وتقرب من الرأاة قدر استطاعها ، ثم
تجذب جفنيها السفليين بأناملها المتورمة ، التى لا تخلو من آثار
حروق ، وجروح بسيطة ، فتبرز مقلتها ، دائرتان سوداوان ،
حائرتان بالدهشة ، بينما تجوس بحثا فيهما ، عن ذراعين ، أو
قدمين ، أو أنف ، أو رقبة ، أو أية أجزاء انسانية يمكن أن تكون
انسان العين . وعندما تمل وتتعب ، وتشعر أن أطراف ساقها
أخذت تؤلمها من جراء هذا الوضع ، كانت تهبط على كامل قدميها ،
وتزم شفتيها بغيظ ، مألثة فمها بزفير صدرها ، أو تخرج لسانها
فى الهواء ، وتحركه حركات دائرية متلاحقة ، لتعود بعد ذلك بسرعة
فتبدأ بترتيب الأسرة ، وتعليق الملابس ، ووضع الأشياء فى أماكنها
المطلوبة .

ولا يمكن انكار ، أن البنت نونة كانت تعثرها رغبة خفية بأن
تكون حلوة ، وزينة . ليس كزوجة الضابط ، التى تحوز من الثياب
أشكالا والوانا ، شيئا قصيرا ، وشيئا طويلا ، وشيئا بأكام ،
وشيئا بلا أكمام ، ولكن حلوة كالمعلمة ، التى كانت تتخيلها فى

صورة ست الحسن والجمال ، كلما تنأهى إليها . حيث تقف فى المطبخ ، وراء الشباك ، صوتها الجميل ، وهى تطلب من البنات الترديد وراءها « أيطلا ظبى وساقا نعامه » .

وكانت « أيطلا » تحير نونة جدا فعندما تأخذ فى ترديدها مع البنات ، وتستمتع لوقع صوتها الحاد المنفرد ، يرسم « أيطلا ظبى » ، تتوقف قليلا ، عن دحك الصحن الذى تغسله فى الحوض ، أو عن تحريك الطبخ ، فى وعائه ، على الموقد ، ثم تريح ساقها اليمنى على اليسرى قليلا ، وتأخذ فى مص إبهامها بتلذذ ، وهى تفكر فى حقيقة أيطلا هذا ، مسائلة نفسها : هل هو برسيم ، أم حلوة حمصية ، أم حمار حساوى ؟!

وتتدافع الصور فى مخيلتها بحثا عن الحقيقة ، وعندما تعيها الأسئلة ، وتكتشف أن سرسوف الماء قد انسأب فى الحوض كثيرا ، أو أن الطبخ غلى بما يكفى ، تعاود عملها ، بينما يفجر الغيظ والحيرة ، قوة هائلة فى جسدها ، فتأخذ فى دحك الصحن وفركها ، حتى تبدو لامعة براقه ، أو تعيد رص الملاعق والشوكات ، فى مواضعها ، على نحو أكثر انتظاما ، . بينما تنغم الكلمات : ساقا . . سا . . قا . . ناعاماتن ، وهى تنظر من الشباك المسيح أمامها بأسياخ حديدية ، يبدو من خلالها مبنى المدرسة المقابل ، والسماء الزرقاء المفتوحة ، تظلمه ، تتصاعد إليها أصوات البنات فى صوت متحد قوى ، فتشعر بأنها على وشك الجنون ، وتصيح بأعلى ما تملك حنجرتها من قوة معهن :

— وارخاء سرحان وتقريب تتفل .

وكانت تتوق لمعرفة أسرار أشياء أخرى كثيرة ، تسمع بها من هذه الدنيا السحرية المخبوءة عنها وراء الشباك ، مثلما تتوق لمعرفة حقيقة « أيطلا » ، تلك الدنيا التى تغزوها من مدرسة البنات ، بين

الحين والحين ، فتجعلها تحفظ عن ظهر قلب كلاما غريبا لا تفهمه ، جعلها تتمنى أن تعبد من يبرد نار قلبها ، ويشرح لها معانيه . والحقيقة أنها حاولت معرفة معنى هذا الكلام ، فسألت حسنين بائع الخبز عن « أيطلا » فغمز لها بعينه ، ورفع حاجبيه بخبث ، وحرك ابهامه حركة ذكرتها بنسوان البلد ، مما جعلها تشتمه ، وتلعن أباه ، وسافل سافلين جدوده ، لكنها خافت إعادة الكرة مع فتية البقال بعد ذلك ، وقررت سؤال ابن الضابط ، لولا ما حدث يوم الجذر التربيعي ، الذى جعلها لا تعود الى التفكير بذلك أبدا . حتى انها ، عندما فاجأتها السيدة ، يوم كانت تقلب فى البصل ، وتتفرس فيه ، بحثا عن كبريتات الأيدروجين ، الذى قالت المعلمة بوجوده فيه ، رفضت نونة بشدة اخبارها ، بحقيقة الأمر عندما سألتها مستغربة عما تفعله ، واكتفت بأن قالت لها انها تبحث عن شئ غريب فى البصل ، مما جعل زوجة الضابط تقول ، بمناسبة هذا الموقف ، ومواقف أخرى عديدة ، ان نونة شعزونة ، وغريبة الأطوار ، وتصرفاتها غير طبيعية ، وتحديدًا بعد ان رأتها تنط فى المطبخ ، وترفع ساقها عاليا ، وتمدهما للأمام ، على النحو نفسه ، الذى رأت البنات يقمن به ، وهن يرتدين السراويل السوداء الطويلة ، فى فناء المدرسة الواسع ، لقد كانت السيدة تقول ذلك عن نونة . وتضيف كلما جلست بين صديقاتها ، خلال الأمسيات ، فى صالونها الذهبى الذى تظن نونة أن عمدة بلدهم نفسه لا يمكن أن يكون قد رأى مثله أن البنت نونة حمارة شغل ، وبها قوة تهد جبل ، رغم أن عمرها لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة ، وأنها لن تطردها من البيت أبدا ، رغم جنونها ، خصوصا وأن الشغالات شحت جدا هذه الأيام وبالكاد يمكن الحصول على واحدة منهن .

ومع أن هذا الرأى لم يرق لنونة أبدا ، ومع أن السيدة صفعتها مرة على وجهها ، بسبب شتمها للولد ابنها ، وقولها له

يا مغفل ، الا أنها لم تكره زوجة الضابط ، فهي تعرف ان الصفعة كانت غصبا عنها ، مثلما كان الشتم غصبا عن نونة ، فالولد كان يجلس فى الصالون اياه ، مع المدرس ، وأمه تجلس قبالتها تفرق اللبان ، وتحيك الصوف ، ونونة كانت داخلة ، تحمل صينية الشاي ، بينما المدرس يسأل الولد عن الجذر التربيعي للخمسة والعشرين ، والخائب ينكش أنفه بأصبعه وينظر الى أمه ببلاهة ، ولا يرد ، ولما كانت نونة قد سمعت الكثير من المعلمة عن الجذر التربيعي ، فلم تتمالك نفسها ، عندما أجاب الولد فجأة ببرود :
٤ ، وصاحت منفعة ، كما تصيح المعلمة : « ه يا مغفل » ، مما جعل الصينية توشك على السقوط من يديها ، والمدرس يقهقه مبهوتا ، والولد يجرى نحوها محاولا ضربها ، الا أن أمه كانت أسبق الى ذلك ، حيث همت من مكانها ، خوفا على أكواب الكريستال من الكسر ، وصفعت نونة ، الصفعة الوحيدة ، التي تلقتها منها خلال سنوات اقامتها الثلاث فى هذا البيت ، ومع أن السيدة لم تكذب ، حين قالت للمدرس ان نونة لابد وان تكون سمعت ذلك من مدرسة البنات ، لأن الشباك فى الشباك ، فقد تعلمت نونة الا تتحدث فى هذه الأمور مع أحد ممن فى البيت أبدا ، حتى لا تفكر السيدة فى طردها ، وهى التى ترغب فى البقاء ، الى الأبد ، حيث المدرسة والبنات ، والعالم الجميل الذى تسمع أصواته كل يوم ، من شباك المطبخ ، ولا تراه أبدا ، رغم اتقاد النار الحامية المشتعلة فى صدرها ، ليل نهار ، شوقا الى أمها وأخوتها ، ورغبة فى الجرى مع العيال ، فى الغيطان ، وتنسم رائحة الخضرة ، والصباح النادى ، وشوفة شمس الشموسة ، عندما تطلع كل صباح ، وسماع نداء أمها لها ، عندما تحرد وتغضب ويتغير خاطرها : « نعيمة » يانعمومة « تعالى كلى ياكبدى .. يانور عين أمك » .

كانت تحب اسمها الحقيقي « نعيمة » ، مثلما تحب تدليلها بنعومة ، ولا تجد ظرفا فى اسم نونة ، الذى أطلقته عليها السيدة ، وناداهما به الجميع ، منذ وصولها من البلد ، الى هذا البيت ، وحتى خروجا منها الى الأبد ، ذلك اليوم الذى لم يعرف أحد بعده أى شىء عن نونة ، وكانت حياتها قبله تسير على وتيرتها المعتادة ، فلقد صحت كعادتها مبكرة ، وابتاعت الخبز ، ثم جهزت الفطور للضابط وزوجته وابنه ، وناولت الصفيحة للزبال ، ودخلت المطبخ ، بعد أن ذهبوا جميعا ، الا ان كل شىء فى حياتها بدأ يتغير فى حوالى الرابعة ، لما دق الباب وكان القادم أبو سريع ، أباهما ، الذى فجر قنبلته ، بعد السلام والمرحبا ، والغذاء والشاى ، وطمأننتها على أحوال أمها وأخوتها واحدا واحدا ، والأخذ والعطاء فى الكلام ، اذ قال ، وهو يتفرد صدرها ، وجسدها ، ويبتسم مسرورا ، حتى برزت أسنانه السوداء ، انه سيأخذها معه هذه المرة ، لأنها ستتزوج ، وأراها القرط الذهبى ، الذى ابتاعه لها العريس ، العائد من بلاد الرسول ، يحمل من القلوس ما يكفى لفرش حجرة بحالها ، فى بيت أمه ، ويزيد أيضا . ساعتها طب قلب نونة عند كعبها ، وأوشكت على البكاء ، فطلب منها أبو سريع ، وهو يبتسم ، لما رأى الدم يهرب من وجهها ، ويصبح لونها كلون اللقطة البيضاء ، ألا تخاف ، فهذا أمر يحدث لكل البنات ، ولا ضرر منه ، وطلب منها تحضير حالها ، لانهما سيسيران معا عند ، الصباح ، ثم قرر أن يفرحها أيضا بالخبر الذى أفرحه ، فأخبرها أن السيدة سوف تمنحها أجر شهر اضافى كحواوان ، وقطعتى قماش لم يدخل فيهما مقص من قبل ، وأن أختها الصغرى ستحل محلها فى الخدمة بمشيئة الكريم .

« . . وكل شىء كان طبيعيا فى هذه الليلة » ، هكذا قالت زوجة الضابط للنيابة ، ووافقها على ذلك زوجها وابنها ، وحتى

أبو سريع نفسه ، فلقد أعدت نونة العشاء ، وغسلت الصحون ،
وقدمت الشاي للولد ، وهو يذاكر في حجرته « ولم يكن بها أى
شئ يثير الشكوك » ، هكذا أضافت ، وهو ما حدث بالفعل ، مثلما
حدث أن نونة باتت الليلة على فراشها ، فى المطبخ ، دون أن
يغفل لها جفن ، تحديق بالسقف المظلم ، وتنظر حيناً صوب الشباك ،
حيث يقف مبنى المدرسة شامخاً خلفه ، وتبدو فوقه قطعة سماوية
صافية ، ترقص فيها النجمات • كانت روحها تدق الهم وتطحنه ،
لأنها لا تريد العودة للبلد مرة أخرى ، ولا ترغب العيش وسط
الوساخة والبراغيث والناموس ، مثلما لا ترغب فى الزواج ،
لتصبح - كأخواتها - مزروعة فى الغلب • وانسابت الدموع ،
ليلتها ، من عينيها بحورا ، وهى ساهرة حتى طلع الفجر ، ورأت
بعينيها لون السماء الأبيض ، وحديد الشباك الأسود ، لكنها عندما
نادتها السيدة ، لتنهض ، وتذهب الى السوق لا يتباع الخبز ، كان
النحاس قد غلبها ، وراحت تحلم بالمدرسة والبنات ، وابن الضابط ،
الذى كانت تصفحه - فى حلمها - صفحات قوية ، لأنه لا يعرف
الجذر التربيعى للخمسة والعشرين ، كما رأت أيطلا ، وكان شيئاً
جميلاً جداً ، لم تعرف أكان انسيا أم جنيا ، فقد بدا ذا لون أبيض ،
بياض ندف القطن ، له جناحان بألوان قوس قزح جميلة ، تعلقت
بهما نونة ، فطار أيطلا بها بعيدا ، بعيدا ، عن المطبخ ، والبلد ،
والناس ، حتى صارت فى السماء ، ورأت النجمات الذهبيات عن
قرب ، بل وكادت أن تلامسها .

وذكر الذين رأوا نونة فى صباح ذلك اليوم ، أن وجهها كان
يحمل تعبيرا غريبا ، هكذا قال الضابط وزوجته ، اللذان أكدا أن
تظراتها لم تكن طبيعية أبدا ، عندما ناولته علبة السجائر ، وهو

يهم بالخروج ، وعندما طلبت منها السيدة أن تعدل منديل رأسها
قبل أن تذهب لا يتباع الخبز .

كانت زوجة الضابط تقول ، وهي تضحك كثيرا ، لصاحباتها ،
بعد أن تحكى لهم قصة نونة ، وهي جالسة معهن في الصالون
الكبير : « ألم أقل لكن .. كانت مجنونة ، وشعرونة جدا .. لكن
أختها .. لا أقدر أن أحدد أمرها بعد ، .. »

الخصبة والجذبة

أوشسكت الأم أن تحرك شفقتها بالسؤال .. غير أن لمعان
الدموع في عيني ابنتها أجابها باللفى قبل أن تفعل ، فجوابتها
بدمعات أكثر منها انداحت على بشرة خديها المخملية الرائقة وهي
تقول :

اذن .. لا فائدة يا نظرى .. لم تأت السحلية أيضا
بالرجاء !!

قفزت الابنة من السرير النعاسى بعمدانه الطويلة الأربعة
والمزدانة بستائر قصيرة من الدانتيل الوردية الرقيقة والمنقوشة
بصور أطفال صغار لهم أجنحة الملائكة .. ومالت لتخرج من تحته
وعاء قديما مملوء بقطع المحوجة الصفراء وناولت أمها بعضا منها
وهي تواسيها مهدئة .

— وحياة النبی لا تبکی .. هذا نصيب .. مسحت الأم
أنفها بطرف جلبابها الأسود الطويل وراحت تقضم قضمة كبيرة من
قطعة الحلوى وقالت :

— ناقصة غسل .

لم ترد الابنة وهي تقول لنفسها : وهل تصنع الحماية شيئاً جيداً ، وآثرت تغيير الموضوع حتى لا تعطى أمها الفرصة للكلام عن أهل زوجها .. وراحت تحكى لأمها عن الجاموسة التي سببتاعها زوجها .. وأنها مازالت عندهم في الدار منذ ثلاثة أيام .. ولا شيء فيها معيب .. ولكنهم سينتظرون أسبوعاً كاملاً وربما تكون مريضة .. غير أن الأم المنكودة السارحة سألتها فجأة :

— أخشى ألا يكون زوجك الخائب قد فعلها كما يجب .. ولم يطلقها في الوقت المناسب . تنهدت الابنة بضيق وحسرة ، وراحت تقص عليها كيف أنه فاجأها وهي عارية في أحضانها بالسحلية التي اندفعت من عود الغاب الطويل حتى لامست رقبتها ، وكيف أنها ارتعبت في تلك اللحظة حتى فقدت القدرة على النطق أو الصراخ .. وحكت لها عنه عندما راح يهدئها ويقرأ لها الصمدية ويكثر الذكر حتى ثابت إلى رشدها وردت فيها الحياة .. ورغم ذلك .. فعينها ضار القمر بدرا شعرت بثقل جسمها وآلام ظهرها وتدفق الدم منها كالعتاد .. بينما كانت تحس البرسيم للبهيمة في الغيط ، مضطربة شفيتها .. وتصعبت وهي تؤمن على حكايتها بأن ذلك أمر الله ولو شاء لأعطاها ما حرما منه .

سهمت الأم وهي تتأمل ابنتها التي اكتسى وجهها في تلك اللحظة بغلالة من الحزن العميق ، وراحت تفكر في حالها ، لسوف يطلقها زوجها في يوم ما لا محالة ، لن يتزوج عليها بالطبع ، فلا أبيض لديه ولا أسود يمكنه من اعالة امرأتين في آن واحد .. والرجال كالماء في الغربال .. وليس للزمن أمان !!

قطعت عليها الابنة غيابها مع نفسها بضحكة مفتعلة وهي تقول :

- زوجي رفض أن يعطيني أخته الكلوب القديم ، ستطوق من الغيظ .

لم يكن هنالك شيء بقادر على أن يخرج الأم من تفكيرها واحساسها بالمصيبة التي تعيشها ابنتها فلم تبادلها الكلام وقالت في اصرار هادئ متجاهلة ما قالت الابنة :

- غدا .. لسوف نذهب الى الحجر المرصود .. لم يبق لنا الا ذلك .

انقبضت الابنة واعتراها الضيق .. فلقد جربت كل الأمور واتبعت عشرات الطرق ولكن بلا فائدة .. لقد زارت الأطباء والسنجرة والمشايخ وسألت العجائز وكادت تموت من الرعب يوم السحلية ..

ولكن ما نفع شيء في نزول الدم خمسة أيام كل شهر .. وما رددت جدران الدار صراخ طفل على مدى عام .. لقد ذهبت وليكن ما يكون : لو راح منها الرجل فلن تنسم فما أخذت منه غير الشقاء بالنهار وقلة الراحة طوال الليل يوقظها وقتما شاء من أحلامها نومة ليضاجعها ويرضى مزاجه حتى لتشعر بأن عظامها ستتفتت في يوم ما .. ليتها يذهب بعيدا عنها بسرعة لتستريح أو ليت الله يتذكره لتصبح هي سيدة الدار وسيدة نفسها .. أوليتها كانت زجلا من البداية حتى لا تحمل كل تلك الهموم ..

تابعت أمها قولها مقاطعة ما يدور في داخل الابنة التي راحت تنظر بعيدا عبر النافذة الى حمامات محقة في زرقاء السماء الصافية .

— غدا .. ان شاء الله بعد اذان الفجر سنذهب سويا ..
لا تخبري أحدا بذلك ولا حتى زوجك .. واياك ان تحدثي أحدا
طوال الطريق وسأتى أنا بالعيش والملح .

— ٢ —

في فجر اليوم التالي .. بعدما استحمت الابنة متطهرة من فعل
زوجها ليلة أمس تسلمت بعدما خرج للصلاة وأسرعت الخطو لتلقى
أمها المنتظرة عند نهاية الحقول .. ودون ان تنفرج شفتاها المطبقتان
بأدنى همسة ، سارتا متجاورتين .. ولا صوت الا وقع الخطى
المختلط بأناشيد الصباح الجماعية التي تنشدها العسافير والديكة
وجنادب الليل الساهرة .. وفكرت الأم كيف أنها طرحت عشرة
يطون اختار الموت منها أربعة .. وازدهر بالحياة ذكران وأربع
إناث .. ينجبون جميعا بمجرد اللمس كالفراشات .. ولكن تلك
الصغيرة المسكينة لا تفعل .. زوجها يزعم أنه قادر على انجاب
عشرة بأكملها وأنه سليم معافى رغم انه لم يذهب الى شيخ أو
طبيب .. ربما كان معيبا ، ستحاول اجباره على أن يذهب الى
الطبيب .. ستلمح له بأن ابنتها على ما يرام .. وبرأها الأطباء ..
سيجن ويفضب ولكنه سيضطر في النهاية .. ولم لا ؟

كانت المرأتان قد اجتازتا الحقول .. وصارتا عند طرف القرية
البعيد على مشارف الجبانة .. توردت وجنتا الأم بفعل المسير
وهواء الفجر الريفى .. بينما راحت ابنتها متلاحقة الأنفاس وهي
تسرع الخطى لتواكب حركة أمها النشيطة كادت أن تنطق طالبة
منها الابطاء قليلا ريثما تستريح ولكنها تذكرت ضرورة الصمت
طوال الطريق وضرورة عودتها قبل عودة زوجها من صلاته بالجامع
.. ضغطت على أسنانها وتجلت وواصلت المسير وتأملت أمها

الكبيرة الجدة وهى تسير كبطة سمينه بضة ودعت لها بطول العمر
.. فلولاها ما عرفت كيف تسير الحياة ولما استطاعت ان تواجه أهل
زوجها طوال تلك المدة .. كان من الممكن أن يأكلوها حية ..
أو يمزقوها ويلقوا بها للكلاب .. يالها من أم .. حنانها لا يعوض
.. أجل لا يعوض .

- ٣ -

الحجر المرصود .. صلد .. بنى .. صغير فى حجم دجاجة ..
يبرز من الأرض وحيدا وسط الجبانة .. ولا أحد يدري من أين
تنبت الحشائش الغريبة حوله ، ومن أين تستقى ماء حياتها ..
وعلى سطحه حفرت بقايا نقوش غريبة لطيور وحيوانات ومفاتيح
كمفتاح دوار العمدة الحديدى الكبير .. بعضهم يزعم أنه كبير ضخيم
ممتد حتى جوف الأرض .. ومأنته عاقر بعيشها وملحها الا عادت الى
مكانها خصبة ولودا .. كان صمت الجبانة المخيف والشواهد
الكثيرة المتراصة المتقاربة كبيوت القرية الطينية قد أحكم الشعور
بالوحشة فى صدر الابنة وزاد من شعورها بالانقباض فخافت وودت
أن تعدو راجعة غير أن أمها كانت قد سبقتها ووقفت أمام الحجر
حتى لامسته فصاحت الابنة فجأة من خلفها حتى شهقت الأم
رعبا :

- نسينا العيش والملح .

ضربت الأم صدرها آسفة على النسيان ووقفت مذهولة غير
ان الابنة لم تمهلها وأردفت .

- علينا أن نعود بسرعة قبل أن يرجع زوجى الى الدار .

بدأت رحلة العودة مرة أخرى .. وأسرعت الابنة الخطى الى
الدار وشعرت هذه المرة أنها خفيفة خفة من تحرر من حمل ثقيل ..
وفكرت في ضرورة أن تعزل الدجاجة السوداء وحدها في الدار وتظل
ترقبها حتى تبيض ولا تتمكن من التهام بيضتها .. ولمعت عيناها
بالغضب وأقسمت انها سسندبحها لو عادت وفعلتها مرة أخرى تلك
اللثيمة ، بينما أكدت الأم في حسرة واصرار قائلة :

— قسمتنا .. ولكن سنذهب ان شاء الله بعد حيضك القادم
.. الحجر لا يخيب رجاء ..

— ٤ —

بعد شهرين .. ألقت الأم بنفسها على سرير ابنتها متوجعة
.. بينما جلست الابنة أمامها وقد اتسعت عيناها بالدهشة وكادت
أنفاسها تتوقف من فرط الانفعال والمفاجأة وراحت تضرب صدرها
وصوتها يخرج مبحوحا :

— يا حوستى .. فى هذه السن وحبلى .. كانت تلتهمها
مشاعر متضاربة من الغيرة والحسد والغضب والسرور ، بينما أمها
لا تقوى على الكلام من الخجل والشعور بالعار .. وفكرت ماذا
تقول لأهل القرية وهى الجدة الوقور ذات الشعر الأبيض كندف
القطن .. والتى ما من مشورة تطلب الا وافقت فيها .. وما من
خلاف نشب الا وفضته ..

انداحت على خدها دمعته فبدت كما لو كانت آثمة فى سن
العشرين .. وأستها الابنة فى حنان وهمست لها وهى تقبلها :
— مبروك ..

تمتت الأم وهى تتحسس بطنها فى حركة رغما عنها :
— عقبالك ان شاء الله ..

امراة على العشب

١ - المرأة والولد والكلب

من وسط القبور ، حيث يسكن الأحياء فوق الموتى ، جاءت
المرأة أم الولد صاحب الكلب .

كانت تحمل طبق الصاج الأبيض صدى الحواف ، مملوء
بحبات الترمس الصفراء ، وترمى ببصرها على اتساع المكان لتختار
بقعة معشوشبة تقبلها مستقرا . . كأفضل ما يكون الموقع لرأى
الشارين ، والولد ، ابنها ينتعل بقايا حذاء يسع قدما أخرى بجانب
كل من قدميه ، وراح يتابع سربا من النمل فى موكب جنائزى
لجعران صغير ، أما ثالثهم ، كلبهم ، فلقد مد رأسه الى أعلى يتشمم
الهواء ، ويسدد بصره محتجا على حداة محلقة فى السماء ، تحمل
بين مخالبها طيرا صغيرا .

جلست المرأة على رقعة مرتفعة ، أسفل شجرة كست الأرض
بأوراقها الخريفية المتساقطة ، وهمست لحالها بعد ان نفذت حتى
عظامها هبة ريح باردة :

تبشير شتاء .

٢ - المخبر القديم مهموم بالشغل

من الناحية الأخرى للطريق ، الذى يفصل مدينة الاحياء عن مدينة الموتى ، أتى المخبر القديم يتهدى على العشب ، واضعا يده فى جيبه حيناً ، بارما شاربه حيناً آخر ، وهو لا يرفع عينيه عن الأرض ، بينما ينفخ نفخات طويلة من منخريه فى غيظ ، كان يفكر محتاراً : من أين يأتى للضابط بخمس قضايا فى ثلاثة أيام ، « خمس قطع فى ثلاثة أيام ؟ » - رددت روحه فى غل - اثنين دعارة وواحدة تسول والبقية متنوعة ؟ وقال لنفسه أيضاً : « أى هرمة انجبت مثل ذلك الوغد ؟! أدخل يدي فى الجراب لأخرج منه قضايا ؟! أريد أن يحصل على نجمة جديدة تلمع على كتفيه بأى ثمن ؟ وعلى حسابى أنا ؟ » . بصق بصقة طويلة داسها بحدائه الغليظ ، وراح يعمل فكره متابعاً : التسول والمتنوعة ، سيحل أمرها باذن الله ، فالיום أو غد لابد وأن تنشب خناقة فى مكان ما . . ربما بين لاعبي القمار فى قهوة الاسيوطى أو بين المساطيل فى غرزة السمالوطى . . وأكد على ذاته بضرورة الذهاب الى هناك ، عندما يغطس المساء ، وكذلك المرور على خمارة الشوام ، فالأمر لن يخلو من شيء .

وقال المخبر القديم لنفسه أيضاً : « يعرف ابن اللثيمة أن الدعارة شحت هذه الأيام فى الدراسة ، شح الورق الأخضر ، وبصق مرة أخرى لاعنا بنات الدراسة ، اللواتى هاجرن للعجوزة والمهندسين ، والخواجات ، والعرب والشقق المفروشة » .

هبّت الريح ، فرفع ياقة معطفه الخشن حتى لامست أطرافها أذنيه ، ودس يده فى جيبه باحثاً عن الفص ، وعندما شعر بخشخشة ورق السلوفان بين أصابعه . . سار .

٣ - المخبر القديم يسامر المرأة أم الولد

عندما اقترب من مجلسها على العشب ، همس بارتياح من وجد « لقية » ، وألقى عليها تحية المساء ، فبشت في وجهه على حذر .

عندها . . كانت الشمس تنسحب راحلة في الأفق ، تاركة بقية من نورها وحيدا يحيل الكائنات الى أشباح منذرا ببدايات المساء ، صرخ النبض بعروق الجالسة على العشب معلنا الخطر . . كان ذلك واضحا في نبرات صوتها عندما ردت على المخبر تحية المساء . لف المخبر القديم سيجارته في تؤدة ، بعد أن مزق الفص بأسنانه قطعا صغيرة ، وخلطها بتبغ السيجارة ، وراح يشعلها ويتابع ببصره سريان اللهب بعوده المشتعل بين أصابعه حتى انطفأ فرماه .

لقد امتص أنفاسها طويلة وزعها بين صدره وحلقه ، وردّها من منخريه في الفراغ الفسيح ، وهتف وهو يناولها لها : مساء الخير .

زاد الخوف أكثر في قلب المرأة أم الولد ، وهي تسحب أنفاسا صغيرة ، متقطعة من بين شفطتيها الرفيعتين ، وقالت لحالها : « هل يأتي مثل هذا الرجل بالخير ؟ » . كان الدخان قد أخذ يشحن روحها ، ففتحت عينيها عن آخرهما ، حتى تقاربت المقل السوداء أكثر مما كانت عليه ، وبدت عظمة انفهـا الكبيرة كجدار فاصل بينهما ، أما المخبر القديم فقال لنفسه أيضا : « آه لو لم تكن حواء . . صفراء . . لكنت سددت بها الدعارة . . ولكن هذه اللبوة . . لماذا لا تسمن قليلا ، لا يمكن ان تصلح بحالتها هذه للدعارة ، فلن

يقتنع بها ذاك الجالس على مكتبه هناك ، فهي لا تسعف ملهوفنا
ولا تروى عطشاننا ، ليكن .. تسول وأمرى الى الله ، .

أما هي فقد تشاغلت بالجري وراء ورقة صفراء ، ملقاة على
العشب الناحل ، جذبها الهواء بعيدا ، وعادت لتصنع منها قرطاسا
جديدا ، ضمته لقراطيسها الأخرى ، وفكرت ثانية وهي تقول
لحالها :

— آه لو كان لى رجل مثل هذا « الصول » .. يعود بالراتب
فى طلعة كل شهر ، وأخلف له من العيال تسعة ، يطلع فيهم التاجر
والسباك والنيشانجى ، وأظل معه مثلما النساء بالبيوت .. أحادث
الجارات كل صباح ، وأطبخ عند الظهر وأبيت على فراش مريح
فى المساء .

وقالت لروحها أيضا ..

— ولكنى أعرف لماذا يأتى الآن ابن اللثيمة هذا .. لسوف
أزيه فى هذه المرة من أكون .

أما هو — المخبر القديم — فغمغم متحدثا اليها بالشكوى من بين
أضراسه ، وراح يسترد منها السيجارة التى قارب نصفها على
الانتهاء وهو يقول :

الدنيا انقلب حالها يا أختى هذه الأيام ، أقول لك انقلب
حالها ، والعوض على الله ، الغلاء فى الطالع .. والمضروب الجالس
أمام مكتبه فى القسم ، يظن أننى قادر على شق الأرض لتخرج

بطيخا . وأننى أستطيع قطف النجمة ، التى يريدتها على كتفه ،
من السماء .

وقال أيضا .

– أيتصور ذلك المجنون أننى أستطيع الاقتراب من شحاذى
الحسين ؟ والله لا يمكن ان أفعل ذلك ، طالما هم يدفعون بانتظام
وبقدر معقول . . لست نذلا يا أختى . لا يمكن أن أفعل ذلك .
أنهى كلامه ، وبعدها سحب النفس الأخير من السيجارة ، التى
كانت قد انتهت وانطفأت وراح ينظر اليها على يستشف ملامح
موقف لها ، ولكن المقل السود التى تصب دائما بنفس الاتجاه ،
وضعت بينه وبين ما يدور بداخلها حائلا سميكا ، فاغتاظ وراح
يحك أنفه .

أخيرا همست أم الولد فى رزانة تاجرة :

– اسمع . . ربما توفق فى مرادك . .

قاطعها بكاء الصغير المغتاظ من مذاق الطين الطرى ، الذى
حشابه شذقيه ولم يرقه ، فأخذ يلفظه مختلطا بلعابه ، فأخذت
تضحك حتى مالت على ظهرها ، وناولته بضع حبات ترمس
قائلة :

– يا ابن الايه !!!

عندئذ . . مد المخبر القديم يده الى جيبه ، وأخرج قطعة النوجه
وألقى بها للولد حتى يسكت .

فقلت هي والدموع تهر من عينيها من فرط الضحك :

– خير ان شاء الله !!

– خير يا أختي .

رد المخبر بعد ان افتعل ابتسامة على شفثيه وأضاف :

– لو جئت هذه المرة سأتيك بالعشاء بنفسى .. وستكونين آخر تمام .. هذه ابنة .. ليلة واحدة فقط .. تخرجين بعدها لعدم ثبوت الأدلة ، وكما فى المرة السابقة سيكون حسابنا .. ولكن العشاء .. سأتيك به . وفى حجرها ألقى بنصف الجنيه .

أما هى فكانت قد حسبت حسبتها .. فلن يضحك عليها هذه النوبة أبدا ، وهى لن تتنازل عن قمطة حمراء « بالترتر » ورغيف لحم من « المسمط » وهذا يكلف جنيتها وربيع ، وخمسون قرشا فى يدها لعوادى الزمان .. لن تتنازل عن الخمسين فى يدها مهما حاول .. حتى لو أخذها بالقوة . هكذا كان كلامها مع نفسها . أما معه فكان الكلام :

– صلى على النبى يا حضرة الصول ، المرة الأولى ظلمتنى .. أى والله ظلمتنى . وأنا لم أعد أطيق .. والغلاء صار على الجميع ، ما ينفع هذه النوبة الا الجنيهان الا ربيع .. هذا بالعدل والحلال . اتصدق وتؤمن بالله .. النوبة الماضية رجعت من التخشبية وعظمى يكاد يتكسر من نوم البلاط .. لن أستطيع هذه النوبة الا بالجنيهان الا ربيع وغلاوة ابنى ..

سعل المخبر وزام ، ووضع ساقا على ساق ، ونظر الى حبات الترمس والمرأة والولد والكاب ، وتمنى لو أشعل نارا هائلة وألقى

بهم جميعا فيها ، وجاء بالضابط ووضعه فوقهم ، قطب جبينه وسدد للمرأة نظرات نافذة وقال :

– صرت ماكرة يا أم محمد .. والله صرت ماكرة ، وملاً الطمع قلبك .. لقد قلت لك سآتيك بالعشاء .. والله سآتيك بالعشاء ..

أطرقت للأرض ومسحت أنفها بطرف طرحتها وسكتت قليلا ثم أردفت بهدوء :

– يفتح الله يا حضرة الصول .

ضحك الولد فى سعادة وهو يمتطى الكلب ، ويشده من ذيله ، وراح يصيح على أمه لتراه فى هذا الوضع ، أما المخبر فقام من مكانه ومد يده الى جيبه ، واخرج الجنيه ، وأمسك بيد المرأة ووضعه فيها وأطبق عليها جيدا . وهو يقول :

– غدا نلتقى فى المساء .

نظرت المرأة الى ورقة النقد التى بيدها وعندما اطمأنت أنها جنيه كامل همست وهى تبتسم :

– لا تنس احضار رغيف من المسط معك !!

الزمن الجميل

أقاوم النوم ، وأقاوم الصبح أيضا ، لا أريد أن أستمّر في الحالة الأولى ، ولكن ما الذى يشجع على العودة مرة أخرى ، لهذا الجنون ، وتلك الغرابة المحيطة بى ، والتي على ابتلاعها .. كل يوم .. كل يوم ، لمجرد أنى لست نائمة ؟ ، ثم ان هذا الصباح ، هو صباح أول أيام العيد الصغير ، وهذا معناه ، أنى لن أذهب الى عملى فى ميدان التحرير ، وسأستريح لمدة ثلاثة أيام من مصائب المواصلات ، ورائحة أنفاس « الكمسارى » المشبعة ببخار البصل والفول ، ولن أرى مبنى « الأنتكخانة » الوسخ ، وخازوق المدينة المسمى بالبرج ، وعلان « شويبس » ، وأشياء أخرى ، كثيرة ومجنونة . كدت أصفق بيدي وأهتف : « يالها من لذة .. ما أجمل العيد » ، لكن همس أمى المختلط بصراخ أبناء أختى ، الصغار ، كان أسرع من حركتى وأنا أحاول القلب وفرد ساقى الى أبعد حدودهما .

قالت بصوتها المقهور المستجير دوما :

– سليم عندنا وغرضه يشوفك .

– آه .. سليم !!

قلت دون شعور بوقع صوتى ، وأغمضت عيني المفتوحتين
قليلا ، وأنا أتلمس غيبوبة ، تساعدنى على ألا أفيق .

- ٢ -

فى السكة للحلم ، لاحقتنى ، رائحة الشاي بالحليب ،
مختلطة ، بألوان زهور البازلاء الشفيفة ، « البمبى » بلون كعبى
جدتى أم حسن ، والبنفسجى ، ثم الأحمر الشففى ،
ونوار اللارنج الأبيض ، الذى كنت أظنه زمان ، عصافير مسحورة ،
ستنتفض وتطير عندما يأتى الربيع وسليم على الدراجة ، أجلس
أمامه وأرن جرسها المكور الكبير ، نمر أمام بوابة قصر « البرنس » ،
ومن خلال فتحات حديدتها المصفور يبهرنى مهرجان اللون ، فى
الحديقة الممتدة ، بعد أن نعبى على بحور البرسيم الخضراء ، وحببات
الندى مازالت تتأرجح على أوراقها ، أستدير ، أمسكه من ذقنه
الخشنة ، وأنظر للمدى وأقول له :

- سليم - هات لى وردة حمراء من عند البرنس

- لما نرجع .

وحياتك يا سليم .

- لا .. مستعجلين ، و « البوسنة » لازم نلحقها قبل

ما تقفل .

أصر .. أصرخ .. أفتعل البكاء ، حتى تتطاير دموعى ،
وتسقط على كفيه المسكتين بالمقود ، ويبرز شريط هلامى لزج من
فتحتى أنفى . وأنا أضرب بقدمى على سيور الدراجة الرفيعة ،
فيزفر بغیظ ، وهو يمسح أنفى بطرف جلبابه ، ويقسم ، بأنه لن

يأخذنى معه فى أى مشوار آخر بعد الآن ، مهما توسلت اليه ،
بينما يتوقف وينزل وينزلنى معه ، ويدلف الى البوابة والكلاب
المخيفة المربوطة فى الأشجار العالية ، تنبح عليه ، وينادى على عم
حسين البواب ، وعندما يراه ، يبتسم ويقول له :

– وحياتك يا عم حسين .. صعبة ورد حلوة لنوسة .

– ٣ –

تملمت ، وحركت يدي ، متحسنة رقبتى ، اصطدم الخاتم
ذو الكرة الزجاجية التى تعكس ألوان الطيف ، والمثبت بخنصرى ،
بتميمة سلسلة صدرى الفضية ، فتصاعد صوت سحرى قديم من
قاع الذاكرة ، واختلط برنين ملاعق الشاى ، اللاهثة فى الاقداح
الصينية ، الذى تنهى الى أذنى ، من الردهة حيث كانت أمى تجلس
مع سليم ، ثم علا ايقاع مشترك ، ملأ رأسى وروحى كلها ، تجسدت
تهويماته فى الرنين المرح ، لجلاجل حصان ابن العمدة النحاسية
البراقة ، وخلاخيل « نافلة » الفضية ، المزينة لعرقوبيها وزنديها ،
والقرط ذو الخرز الزرقاء المتدلى من أنفها .

وفجأة جاءتنى صورة « نافلة » كاملة .. « نافلة » غريمتى ..
« نافلة » التى عذبتنى ، عذاب الروح الأول ، « نافلة » التى كنت
أغار منها تلك الغيرة ، التى كانت تجعل صدرى يعلو ويهبط وأنفاسى
تتلاحق وتختنق ، وأرغب فى الموت فعلا ، « نافلة » الضفائر
الحريرية السوداء ، والشعر المفروق من الوسط ، والمزين بقلائد
الخرز الزاهية ، وقماطها الأحمر الدامى يطوق الخصر .

– سليم .. طالع للسوق وحدك ؟

– لا ٠٠ تعالى نروح « نافلة » ، النعجة ولدت ، ونسأل عن الكبش .

جذك ناوى يفدى فى العيد ٠٠ تعالى ٠٠

يقول ، وانا أقول : « نسميه سعيد ، نسمى الكبش سعيد ٠٠ ويكون لونه أسود ٠٠ ورأسه أبيض » .

ونذهب اليها ، حيث تخرج لنا من الخيمة ، والغنمات تشغو حولها ، بينما الشاى يغلى ، على وقدة الخشب ، وهى تصبه ، وترنو الى سليم ، بنظرات ترتعش لها أهدابه ، ويتحرك فكه معها ، وتلتمع حبات عرق خفيفة تستقر بملتقى عقفة حاجبيه ، بينما قلبى يدق فى خوف غريب ، وعندما تمد يدها له بكأس الشاى ، يملكنى شعور خفى ، بأن أنتزعه منها وأقدمه له ، أو آخذه وأجرى بعيدا . . بعيدا عن « نافلة » ، ولما تجلس أمامه ، تطحن الشعير بين حجرى « الرحاية » الثقيلين ، وتهمس مبتسمة ، كاشفة عن أسنانها الوضاء قائلة « كيفك يا سليم » ، أقترب منه . . وأفرد له ذراعى وأقبله فى كتفه ، وأقول :

– شيلنى يا سليم .

وفى الدار ، بعد أن نعود ، تسألنى أمى عن حال « نافلة » . . فأجيبها فى حنق :

– « نافلة » دمها ثقيل .

الأغاني سخيفة ، وتفتعل البهجة ، لماذا لا يذيعون طيلة اليوم ، « مصر التي فى خاطرى » ، أو « أمانة عليك أمانة يا مسافر بور سعيد » ، و « راديو بلدنا يذيع اخبار » ، لماذا يطاردوننا ويتعقبوننا حتى ونحن فى الأسرة ، ويحاصروننا بتلك السخافات المسماة أغنيات ؟ ، كنت أهمس لنفسي بذلك ، وأحاول النهوض ضاربة اللحاف بقدمي ، بينما اتمطى فى تلذذ ، ولكن هذه الأنوار الكثيرة ، تهاجمنى هى أيضا ، تتلأأ فى رأسى الثقيل ، وعيني المغلقتين . . رائعة ، مبهرة ، ألوان حبات « براغيث الست » السكرية ، ورائحة عطرها الثقيل النفاذ ، وأعلام المملكة باللون الأخضر والنجوم البيضاء الثلاثة ، يحتضنها الهلال ، تتناثر فى فوضى على الحبال المعلقة بالحوارى والأزقة .

ثريد أمى فى « الانجر » المجلى لتوه عند مبيض النحاس ، تكلله قطع اللحم المسلوق . . لحم سعيد المذبوح ، سعيد الذى أحببته نحا كثيرا ، كان ينظر الى كلما قبلته بحزن . . بكيته بحرقة ، عندما طالعه صريعا يفور دمه على الأرض ، دمه الذى غمست فيه كفى مرارا ورسمتهما على الحوائط الطينية لغرفة الذبيح ، بينما تشهد أمى ، ويتشهد خالى . . وأقول وراءهما بعد ذلك مع أخوتى كلهم . . لا حول ولا قوة الا بالله ، و . . ألف ألف صلاة على النبى ، وسليم معه نصف الريال الفضى المحلى بصورة ملكنا المفدى ، حتى يشترى « الجاز » للقناديل ولفة الشمع للمقام ، وأمى تمسح أنفى جيدا بالمنديل قبل الذهاب وتقول .

— أوعى البنت ياسليم . . اياك تأكل حاجة وسخة ، واياك « السوييا » والنبى .

وندور سسويا فى الزحام .. حارات وأزقة .. ورجال
ونسوان وعيال ، فى ملابس جديدة ملونة ، وزمامير وطراير ،
وترمس وحمص ، وبليلة سخنة وأقماع سكر وجلاب ، وقبل أن
نصل الى المقام ، حيث الحصى على الأرض والصمة الحيرية
الحضراء ، تعلو التابوت الضخم، الملح بائع السوييا، وأباريقه الزجاجية
الزرقاء ، مصطفة على حافة العربة ، تبرز من خلالها الأطراف الطويلة
المعقوفة ، فأدب على الأرض بقلمى ، وأشد سليم من طرف جلبابه
البنى ، وأقترب منه حتى ألامسه وأصرخ :

— سوييا يا سليم .. أشرب سوييا ياسليم ..

— لا .. أمك وصيتها لا .. ممنوع .

أهدده بأن أجلس على الأرض ، حتى يتسخ فستانى الجديد ،
ويتلوث بالتراب ، أنتحب بصدق .. وأشد الشريط الأحمر المعقود
فى شعرى بغيظ ، وأتحسس يده فى رجاء ، فيذعن ويحن قلبه
ويقول :

— طيب .. بعد ما نزور المقام .. ونقرأ الفاتحة .

— لا .. الأول ياسليم .. عطشانة موت .. وحياة نوسة
عندك ياسليم .

وبينما ترطب حلقى ، قطرات السوييا المثلجة ، التى ارتشفها
من العنق الزجاجى للابريق .. أنظر اليه فى امتنان قائلة :

— أنا أحبك يا سليم .

أولاد أختي الثلاثة ، اشتركوا في اللعبة الوسخة ، التي
بدأها الشارع بضجيجيه ، وأعلنوا الحرب على الهدوء ، صباح
وبمب وزمامير ، والمهندسات أيضا موجودة ، بكافة أنواعها ..
مائية ، ومثيرة للدخان ، وأمي سعيدة جدا ، بهذا الهجسوم
الهكسوسى ، وتعبر عن فرحها بهذا القطيع الطفولى فى عبارات من
نوع « اسكت يا مضروب ، أوعى تضيق فلوسك كلها على المراجعين ،
اشرب اللبن الأول ، وانزل الشارع » . قمت للاغتسال ، وأعام
المجلى أغمضت عيني قليلا ، لاتفادى حرقه فقاعات الصابون ،
ويينما كنت أزيل الماء عن وجهى ، دق قلبى ، ترى ، كيف
صار شكل سليم الآن ؟ ، منذ أكثر من عشرين عاما ، لم أره ..
آخر مرة كانت ليلة زفافه لناقلة .. أول فجيرة للقلب أيام الزمن
الجميل ، كنت يومها فى السابعة ، وهو .. لا أدرى عمره على
وجه التحديد ، كان كبيرا .. وجميلا جدا فى عيني ، بل كان أجمل
من أمى نفسها ، أغلى من روحى « هارون » ، بكل فروه الأصفر
الجميل ، وشواربه اللطيفة . يومها غسلتنى أمى وعندما أخذت
تجفف جسمى ، وتلبسنى اللابس النظيفة ، وتغنى « قلعتك حرز ..
ولبستك اثنين ، ستنا فاطمة ، لبست الحسن والحسين ، حرز
للنهار يانوسة ، وحرز لليل » . قبلتها وسألتها :

- أنت عاملة لى فستان جديد ليه ؟

- فرح سليم الليلة .

قالت ، مما جعلنى أنظر فى عينيها بدهشة وأهتف :

- أنا حتجوز سليم النهاردة ؟

ضحكت أمى ، ضحكة صافية مجلجلة ، رنت فى أنفساء
الحمام ، وأخذت تقبلنى فى سعادة ، وأبى يطل برأسه من باب

الحمام الموارب متسائلا فى دهشة عن سبب الضحك وعلو الصوت ،
وقالت :

.. - يارب أعيش واشوفك يا نوستى عروسة ، سليم ناوى يزف
« نافلة » الليلة ..

أما المساء ، فكان فى « الموليحة » حيث الأرض الفضاء
الواسعة بطرف البلدة ، جمعت كل البيوت ، وكل الناس ، ورخت
انا مع أمى وأبى وجدى وأخوالى ، واصطف العرب صفين ، ورقصوا
بالخناجر ، وغنوا ، ورقصت « نافلة » ، هزت رأسها مطوحة
ضفائرها ، وحركت مؤخرتها .. كانت رائعة فى ضوء القمر ،
وكان فى حلقى سد هائل من الآلام ، وغنى الرجال أغنيات سريعة
لم أفهمها ، وجلجلت زغاريد نساء الفلاحين ، مع دقات البدو ، وسال
دم خراف كثيرة - ذكرتنى بسعيد - تحت أقدام العروسين المخضبة
بالحناء ، وكنت أنظر الى ذلك الاحتفال الغريب ، تتقاسمنى مشاعر
الخوف والفرح ، وأحس ان سليما تغير ، وضاع منى ، سرقة
« نافلة » الغادرة وكانت تتعالى الايقاعات فأبتهج ، وأحاول تحريك
قدمى ، وهز مؤخرتى ، كما يفعل الجميع ، وتفعل « نافلة » ،
وحاولت الاقتراب من سليم ، لأريه نفسى وأنا أرقص ، فكان يضحك ،
ويمسح بيده على شعرى وهو مستمر فى الرقص ، وأمى تبتسم
من بعيد أيضا .

ويمر الكروان منشدا فى السماء الصافية .. لك .. لك .. لك ..
لك .. لك ، فيتهلل الجميع ويكبرون ، أما أنا فتمنيت أن يأخذنى
الكروان بعيدا معه ، ولا يعرف سليم طريقى ، ويتعذب ويبكى ،
ويبحث فى كل مكان عن نوسة حبيبة قلبه ، ونور عينيه .

وعند عودتنا للبيت ، بكيت ، واحتضنت هارون ، ورحت
أشكو له سليما ولكن اللعين انشل عني بمطاردة فراشة ، حومت
حول المصباح ، وقفز خارجا وتركني وحيدة لأنعس وتدور في رأسى
الصور ، « نافلة » بثوبها المطرز بالخيوط الحريرية الملونة ، ودم
الخراف الحار وهو يرسم أشجارا حمراء موحشة بين أتربة
« الموليحة » ، وأيادى الرجال والنساء والأولاد المخضبة به ، وهى
تنطبع على الجدران الطينية ، وأمى تدس فى يد « نافلة » القرط
الذهبي ، الذى ابتاعته كهدية نها ، وكانت آخر صورة رأيته فى
الحقيقة ، قبل أن أغيب فى النوم ، الجناحين الذهبين المفتوحين
حتى النهاية ، والخرزة الزرقاء فى صدر الطائر ، وهى تكبر وتنضخم
حتى ملأت كل عيني ، وعندما كبرت أكثر وذهبت الى المدرسة ،
رأيت الصورة نفسها مرسومة فى كتاب التاريخ ، وعرفت انه
حوريس •• المخلص الحبيب حوريس •

- ٦ -

- سليم •• ؟!

قلتها ، طويلة • متسائلة •• تحمل الفرح والدهشة ، كادت
أن تسقط من يده كأس الشاي ، فسارع بوضعه على الصينية ،
واحتوانى بين ذراعيه ، وراح يربت على ظهري ، شعرت بالدفء
القديم فى رائحة الأرض المبللة بحبات المطر ونحن نجرى تحتها
فى الشتاء ، عائدین الى البلد ، مثلما شعرت برائحة « حنون »
البيض وهو خارج من الفرن ، وطققة أكواز الذرة • المشوية فى
الليل •

- سليم •• كده تنسانا ؟!

قلت .. بعد هدوء العاصفة : دموع على خد أمى ، وارتعاش
فى أطراف سليم ، وحمرة خجل شعرت بها تلفح صفحة وجهى .

— كبرت يانوسة .. سبحان الله !!

تصعبت أمى وهى تمسح دموعها .. وقالت :

— الزمن !!

حكى ، وحكت أمى ، وأنا اتفرس وجهه ، ووجهها .. « سليم
روح قلبى ونور عينى » . هكذا كنت أقول له وأناديه ، الآن صار
وجهها بجلد متراخ على العظم ، وشيبا يتلألا بأضواء الفضة ..
تذكرت ألف ليلة وليلة « الشيب نذير الموت » ، واكتشفت أن أمى
صارت عجوزا أيضا ، تحسست وجهى بيدى ، رغما عنى ، وهو
يحكى وأمى ترد بكلام سمعت بعضه ، ولم أسمع البعض الآخر ،
تناول الذين عاشوا ، والذين ماتوا ، كما تناول أولاده الخمسة ،
الصبيان والبنات ، وحكى عن الكبير الذى ذهب الى البلاد العربية ،
وعاد بالجوز واللوز ، وقمر الدين ، وأصبح يمتلك متجرا وسيارة ،
والصغير ، الذى يرتدى السراويل الزرقاء الضيقة ، المحبوكة على
جسده ، وينفش شعره كالعبيد ، ولاحظت ان سليم — يرتدى فى
معصمه ساعة كبيرة ، ويرتدى جلبابا حريرا أبيض ، ولكنى لم ألمح
فى عينيه أبدا بريق السعادة القديم ، كانت عيناه باهتتين بلا طعم ،
ردت نظراته بذلك على أمى عندما قالت :

— الحياة صارت بلا طعم ياسليم .. والناس لم تعد ناس ..

أتذكر يا سليم عندما كنا فى شم النسيم ، نلون مائة وخمسين
بيضة كاملة ونتبارى جميعا فى أكلها .. لم يكن للأشياء ثمن وقتها .
تنهد وأشعل سيجارة ، سعل بعدها قليلا وأمن على كلام أمى
قائلا :

— الناس جاءت في الزمن الملعون هذا .. وأولاد الحرام لم يتركوا شيئاً لأولاد الحلال ، تصوري .. عيال سعيون الحاوي ، صار عندهم الآن عمارات ؟ . ناس تقول مخدرات ، وناس تقول الشقق المفروشة ، وشغل الحرام .. والله أعلم .

؛
أنا أيضاً أشعر بأن الدنيا بلا طعم .. حياتي ، وحياة الناس كلها ، أقرأ ذلك ، وأنا أطل على وجهي في المرآة كل صباح ، وأراه على وجوه الناس في الشوارع ، وعلى محطات « المترو » ، و « الأتوبيس » ، ويقول زملائي في العمل ، بالزفرات والتصبغات والآهات .. ومنذ زمن لم أسمع ضحكة حقيقية ، ضحكها أحد من القلب ، ورغم أن اليوم عيد ، وأمي صنعت الكعك ، وغطت المائدة بغطاء جديد ، وابتاعت زهوراً وحلوى ، لا أشعر أن أحداً قد فرح هذا الصباح ، طلقات البمب لم يعد لها هذا الدوى الطفولي في أذني ، الشوارع قذرة ، والوجوه يملوها الاصفرار ، والخضرة صارت شيئاً نادراً ، والمواصلات جحيم دائم ، والناس لم يعودوا يحب بعضهم بعضاً .. هكذا قلت لسليم عندما سألتني لماذا لم أتزوج حتى الآن ، وأمي تضحك بمرارة وتذكرني بحبي لسليم ، ونوادري معه ، ولأنها خافت من غضبي بسبب سؤاله ، راحت تغير اتجاه الكلام وذكرتنا عندما ذهب سليم إلى الحرب ، وكنت أنا أصنع بنادق من الخشب ومشابك الغسيل مع البنات والأولاد في حارتنا ، ونستخدم نوى البلح كبارود ، نحارب به الانجليز والفرنسيين واليهود ، ونهتف بأعلى ما تملك حناجرنا الصغيرة من أصوات : عاشت بور سعيد المجيدة .

وتذكرت أنا مع ذكرياتها أشياء أخرى كثيرة .. أيام حبي لسليم ، وحبي لعادل ابن الجيران ، الذي كان يصر على تقبيل ركبتي المجروحة ، عندما أقع ونحن نجرى ، ويقول لي : « طابت

خلاص ، ، وأصدق أنا رغم لونها الدامي ، ونيران الألم المتصاعدة منها .

وحكى سليم أيضا عن همومه : حفيده لا يعرف من هو الزعيم سعد ، ولم يسمع عن دنشواي ، وقال أن السبب هو الكفر ، فهو يتعلم في مدارس كفره ، وسب اليهود العرايا الذين يتجولون في البلد براحتهم ، وقال ان بخلهم جعلهم يسكرون هكذا لأجل توفير متري قماش ، ولما سألته عن « نافلة » بكى . وبكت أمي أيضا بسبب أخي الذي هاجر الى كندا ، والذي تخشى أن تموت دون أن تراه ، ودمعت عيناي من الهم الذي يثقل صدري ، وقلت في نفسي الجميع يبكي بداخله ، ولكنه ينتظر إشارة البدء من الآخرين ليطلق دموعه ، وتذكرت كيف بكى الناس في جنازة عبد الحليم وأم كلثوم ، وكادوا ان يخطفوا نعش رشدي أباطة ، رغم ان نصفهم لم يقدر له الذهاب الى السينما طوال حياته . تنهدنا جميعا . . وقال هو :

— سرقنا الوقت .

نهض من مكانه ، تشبثت به أمي حتى يظل معنا للغداء — ولكنه كان مشغولا — هكذا قال ، وكنا مشغولين أيضا ، ولكننا كنا نجاهله . . أجل نجاهله ، رغم حبنا له الذي يعرفه ، مثلما يعرف أنه لا يرغب في ان يثقل علينا بطعامه .

ابتسم بطيبة . . ومر بيده على خدي ، وقالت أمي :

— عيدها ياسليم . . الدنيا تلاهي صحيح . . لكن العشرة لها حق .

وعدنا بأن يعود ليرينا أحفاده الحلوين . . . لكنه لم يعد أبدا .

لوكيميا

كانت أغرب فتاة في فرقتنا ، بل ربما في الصف الثاني على الإطلاق . من حيث الشكل ، قصيرة ، نحيلة ، ببشرة لفتية بيضاء ، تبدو معها كما لو كانت منتشلة لتوها من الغرق ، أو كأنها على وشك الاحتضار أما أنفها الطويل المعقوف فيشطر وجهها شطرين ممصوتين ، تبرز منهما خرزتان خضراوان ، كانتا عينيها .

كانت تمتلك قدرة خاصة على الصمت وعدم الحركة والابتعاد عنا ، بل وحتى عن أقرب جارة لها تشاظرها المقعد المدرسي نفسه ، ولولا مهارتها الشديدة في مادة الكيمياء ، لظننا أنها بلهاء ، غبية ، فقد كانت هي الوحيدة بيننا جميعا القادرة على خلط الخارصين بحمض الادروكلوريك بنسب صحيحة ، ودون الوقوع في أخطاء .

كانت تستطيع تلاوة تلك التعاويذ السحرية الغامضة من نوع « يد ٢ ، كب ٤ ، لو ٥ » بمنتهى البساطة والسهولة ، وكانت تحفظ الجدول الدوري كاملا ، وتميز بين العناصر والفلزات بدقة . . الى آخر ما حاولوا تعليمه لنا من ذلك العالم اللعين الذي سرعان ما يتبخر من الرأس ، بعد قضاء ساعات طويلة في حفظه واستذكاره .

لذلك ، ولشكلها ، ولصفاتنا البشرية ، ولأسباب أخرى ، أطلقنا عليها اسم « لوكيميا » وهو اسم سرعان ما انتشر في صفنا

بأجمعه ، وفى الصفوف المجاورة لنا ، ومع مرور الأيام تسرب للفرقة الأولى والفرقة الثالثة ، حتى جناينى المدرسة العجوز ، الذى كان يعطينا وردات بين الحين والآخر ، بينما يغمز بعينه ، ناداهما فى إحدى المرات بلوكيميا .

كانت كراهيتنا للوكيميا ليس مبعثها الغموض الذى يلفها ، وقدرتها الفائقة على الصمت ، وتفوقها الشديد فى الكيمياء ، بالإضافة الى بعض التصرفات الغريبة الأخرى ، التى كانت تبدر منها ونلاحظها ، أحيانا ، كحماسها الشديد وصوتها الجهورى وهى تنشد نشيد الصباح المدرسى ، ولكن كانت هناك أسباب أخرى ، كنا ندرك بعضها ، ولا ندرك بعضها الآخر ، وما كنا ندركه هو عدم مشاركة لوكيميا لنا فى أشياء كثيرة نحب ممارستها . مثلا ، لم تكن تشاركنا قراءة « البطة السوداء » أو « الأرنب الشرس » ، عندما نتجمع فى ركن بعيد فى فناء المدرسة ، ونأخذ فى مطالعتها بتنهف ، مهما كانت الظروف ، حتى لحظات البحر الخائفة فى الصيف ، أو فى أيام الصقيع الشتوى ، ولم تكن لوكيميا تشاركنا الأحاديث عن تلاميذ المدرسة الثانوية المجاورة لنا ، كما كنا نشك فى أنها تعلم مثلنا قبل أن تنام بفصول ساخنة من « البطة السوداء » ، أو « الأرنب الشرس » ، وما ورد ذكره بدقة من فنون وأسرار الغرام على صفحات تلك الكتب الأخرى المقدسة – بالنسبة لنا بالطبع – التى كنا نقتنىها فى حرص ونتعلم منها مالا نعلمه .

وطالما ولجنا هذا الجانب ، فسوف أحدثكم عنه بوضوح أكثر ، وفى الحقيقة ، كانت لوكيميا تثير سخريتنا بصدرها المسحوح ، وعودها الجاف ، وحاجبيها الخشنين اللذين يلتقيان عند بداية أنفها ، وكنا نستغرب كونها لا تحرص مثلنا على نتف الشعر الذى يغطى ساقىها وذراعيها بعجينة السكر والليمون ، بل والأغرب

انها ردت بابتسامة ساخرة على واحدة منا ، أشارت عليها باستعمال موسى الحلاقة سرا ، اذا كانت أمها تمنعها من ازالته ، وقالت :

ـ لا دخل لأمي في هذا الموضوع ! •

أما جوهر الأمر ، الذى لم تستطع أي منا أن تفتاح به أخرى ، والذى كان مبعث كراهيتنا الأساسى للوكيميا ، فهو قدرتها على فعل ما لم نستطع فعله أبدا ، فلقد كانت تمتلك قوة جهنمية تستطيع بها أن تثبت نظرات عينيها ، ولفترات طويلة ، على وجه مدرس الرسم ، وفى عينيها ، وهى تناقشه فى أمور لا نفهمها ، تتعلق بالألوان والنور والظل ، مدرس الرسم معبودنا جميعا نحن بنات الصف الثانى ، وهو الذى كانت نظرة واحدة الى عينيها كقيلة بأن تبعث فى أجسادنا رعشات كهربائية سريعة ، تجعلنا لا نعاود مثلها الا بصعوبة •

وأستطيع الآن أن أتذكر ، وبخلقى غصة مريرة ، ذلك اليوم التاريخى ، الذى قلب الأمور رأسا على عقب فى مدرستنا ، بل وغطى على كل الأحداث الأخرى الكبيرة ، التى حدثت آنذاك ، ومنها خطوبة « أبله فضة » مدرسة مادة الفلسفة ، التى كنا قد فقدنا الأمل فى زواجها بعد بلوغها الأربعين ، وفشل صبغة الحنة فى مواجهة الزحف الأبيض على خصلات شعرها المجعد ، وأيضا مثل محاولة انتحار طالبة بالصف الثانى حزنا على وفاة مطرب شهير بعد صراع طويل مع المرض •

ففى هذا اليوم التاريخى ، يوم « لوكيميا » أعلنت ناظرة المدرسة ، من خلال أوامرها الصباحية ، طرد لوكيميا من المدرسة لمدة خمسة عشر يوما متصلة ، بسبب سوء وانحراف سلوكها ،

وزعمت ان هنالك واقعة محددة تتعلق بهذا الأمر ، تحتفظ لنفسها
بتفاصيلها الخاصة حفاظا على بنات المدرسة .

والواقعة ، التي عرفناها بعد أيام طويلة من التحرى والتقصي ،
والتي سرعان ما اندلعت تفاصيلها بين الصفوف كلها تتلخص
في ان لوكيميا ضبطت في شقة باحدى نواحي القاهرة ، وذلك
بعد تكرار تردددها على ذلك المكان ، وبعد أن شاهدها الجيران وبعض
أبناء الحي ، وأبلغوا البوليس الذي بلغ أهلها والمدرسة .

ولمدة خمسة عشر يوما ، وهي فترة غياب لوكيميا عنا ،
تضاربت الأقوال حول الموضوع ، فالبعض أشرن الى أن عدد من
ضبطت معهم لوكيميا كانوا ثلاثة رجال ، فيهم طبيب المستشفى
الجامعي الذي كان يحاضر أيضا للطلبة ، والبعض الآخر من البنات
قلن بأنه كان رجلا واحدا فقط تجاوز الخمسين من العمر ،
أما الرواية التي قهرتنا وأشعرتنا بالمرارة المريرة فقد جاءت على
لسان تلميذة في الصف الأول ، قالت ان العدد الحقيقي خمسة ،
وذلك بعد أن أقسمت ثلاثا ، بل قالت لتؤكد روايتها ان أحد هؤلاء
الشبان يمت لها بصلة قرابة ، فهو أخ غير شقيق لزوج بنت عمه
أمها !! .

خمسة يالوكيميا مرة واحدة !! خمسة أيتها الجبارة المفترية !!

هذا ما كنا نرده جميعا في مرارة ، فنجوى فوزى أجمل بنات
المدرسة بكل ما تملكه من قوام فارغ ووجه جميل ، بالكاد حصلت
طالب بوليس ، ولوكيميا بشعرها الأجعد المنكوش وقامتها
القصيرة - حتى ساقها لم تخل من عضلات تتكور كعضلات لاعبي
كرة القدم . . . لوكيميا التي بلا صدر أو ارداف تحقق خمسة
بضربة واحدة ؟؟ .

وبالطبع رحنا تتناقش ونخوض فى أمور أكثر تفصيلية عن الموضوع الذى ظل محورا لأحاديثنا طوال خمسة عشر يوما ، وخاصة بالنسبة لنا فى الصف الثانى ، حيث كنا أقرب وأكثر معايشة للوكيميا ، فقد استطعنا وضع النقاط على الحروف وتوضيح أمور دقيقة من خلال استعانتنا بمراجع عميقة « كالبطة السوداء » و « الأرنب الشرس » أما الأمر الوحيد الذى ثبت بعد كل ذلك ، فهو أن نظرتنا للوكيميا وفكرتنا عنها أخذت فى التغير على نحو جدى ، وراح احترامنا لها يتصاعد ، وتقديرنا لقدراتها يزيد ، فلقد اكتشفنا فجأة قدرتها الفريدة ، وهذا ما دفع بنا فى النهاية للاتفاق على ضرورة فتح صفحة جديدة معها ، وضرورة تدعيم العلاقات بها منذ أول لحظة تعود فيها الى المدرسة عندما تنتهى عقوبة فصلها منها .

لقد أحدثت واقعة لوكيميا التاريخية تغيرات جوهرية فى عديد من بنات المدرسة ، تبدت فى جملة مظاهر منها أن البعض أخذن فى كشف شعورهن على طريقة لوكيميا ، وتركها باهمال ، حتى ذوات الشعر الناعم المسترسل لم يعدن الأساليب لتجعيد شعورهن خصلهن المناسبة على الجبين والبعض الآخر تركن شعيرات سيقانهن وأذرعهن تنمو على راحتها وتعمدن عدم نتفها أو حلقها .

وعلى امتداد الصفوف الثلاثة فى المدرسة انتشرت ظاهرة حواجب لوكيميا الكثيفة المعقوفة ذات العبسة ومن كانت حواجبها خفيفة ناعمة راحت تستخدم قلم الفحم لتبدو بحواجب « لوكيمية » .

أما طلاب المدرسة الثانوية المجاورة لنا بالحي ، فقد قررنا قطع العلاقات معهم ، لم تعد هناك مواعيد أو لقاءات أو خطابات

متبادلة بيننا وبينهم عن طريق محمد الأسمر بائع الفول السوداني
الذي يقف بعربته على ناصية شارع المدرسة .

رحنا ننشده جميعا مستوى لوكيميا في العلاقات مع الجنس
الآخر ، طبيب ، مهندس ، طالب جامعي في الحد الأدنى .

عودة لوكيميا !

عندما عادت لنا في صباح أحد الأيام ، لا أستطيع أن أصف
بأي مشاعر قابلناها ، فقط ، أتذكر ان طابور الصباح اليومى
تأخر عن موعده بسبب الانشغال بلوكيميا ، ونسينا تحية العلم ،
رغم حضورنا جميعا مبكرات ، ووجلت المشرفة على النظام يومها
صعوبة في ترتيب الطوابير وضبط النظام ، فلقد تدافعنا جميعا
الى لوكيميا ، البعض يريد التحدث معها بسرعة للحصول على
معلومات جديدة ، الأخريات يردن فقط رؤيتها وإعادة اكتشاف
تركيبها الجسدية الخارقة ، قليلات هن اللواتى استطعن
لمسها أو مصافحتها ، أو الهمس لها بالتحية ، وأظن ان فتيات في
الصف الأول همن بها في ذلك الوقت مثلما همنا بها بعد فترة
لأسباب أخرى كما انهن حدثننى وقتها عن ارقهن الليلي بسببها
مثلما كان يؤرقهن مدرس الرسم ، وأكذن ان ذلك حدث بعد أن
تلاقت عيونهن بعيني لوكيميا .

عينا لوكيميا في ذلك اليوم ، يوم عودتها ، كانتا مدهشتين ،
مدهشتين جدا ، لأنهما كانتا تحملان النظرات القديمة الهادئة
نفسها ، التى تستطيع أن تثبتها على وجه مدرس الرسم ، ومدرسة
اللغة العربية المحجبة ، والتى زادت كراهيتها للوكيميا أضعاف
ما كانت عليه من قبل ، والتى لم تكن في ذلك الوقت ندرك أسبابها
على وجه الدقة .

وعلى وجه الدقة بدانا نعرف لوكيميا أكثر فأكثر ، امضينا معها بقية النصف الباقي من السنة الثانية ، وكل السنة الثالثة ، حتى فى الأجازة الشتوية الصغرى ، والأجازة الصيفية الكبرى لم ننقطع عنها ، ولم تنقطع عنا ، كنا نزورها فى بيتها ، أو نلتقى معها فى الشارع ، تحدثنا ، واكتشفنا من خلالها أشياء كثيرة ، كنا نجهلها ، عن الحياة ، والرجال ، والنساء ، والأشياء ، حتى عن أنفسنا أيضا .

واكتشفنا انها جميلة حقا ، وتمتلك روحا رائعة ، لقد عرفنا من خلالها معانى أخرى عديدة للجمال ، اكتشفناها فى أنفسنا ، وفى الناس الذين كنا نعرفهم ، أو الذين كانت تعرفنا عليهم لوكيميا .

وكنا نمضى ساعات طويلة معها ، نتذكر ذكريات كثيرة عنها وعنا ، وتفاصيل صغيرة عن حياتها بيننا فى المدرسة ، لم نكن نلاحظها أو ندركها ، وأدركنا بعد ذلك سر كراهيتها للمدرسة اللغة العربية المحجبة ، وسخرية لوكيميا الدائمة منها عندما تقول « الناس بعضهم فوق بعض طبقات » . كما اكتشفنا موضع القوة فيها ، والنقى مكنها من الثبات فى مواجهة السحر الرجولى الشديد للمدرس الرسم .

ولقد عرفت لوكيميا أيضا طالبات الصف الأول ، وطالبات الصف الثالث ، وعرفت بنات المدرسة من خلالها بعضهن بعضا ، على نحو آخر ، ولأسباب لا تتعلق « بالبطة السوداء » أو « الأرنب الشرس » حتى حدث النى حدث بعد ذلك ، فانه قبل انتهاء العام الدراسى بشهرين حيث كنا على وشك التخرج من المدرسة للالتحاق بالجامعة ، كانت لوكيميا قد خرجت على رأس المدرسة فى مظاهرة رائعة تاه هتافها بين هتافات المظاهرة الكبرى الخارجة من الجامعة عند ميدان العباسية .

العاشقة

الابتسامة المطبوعة دوماً ، كوشم أبدى على وجه المريضة
فايزة ، والتي كانت السبب في ترقيتها أكثر من مرة ، وحصولها
على شهادة تقدير من إدارة المستشفى بالاضافة الى شهادة الأطباء
والمرضى لها بطول البال وسعة الصدر ، هذه الابتسامة التي تبرز
سناها الأمامى المكسور ، تفضع بالتجاعيد الخفيفة المرتسمة معها
حول الشفتين حقيقة عمرها كامرأة أربعينية ، أخذ شبابها في العد
التنازلى منذ سنوات ، وتضفى على نظرات فايزة مسحة من التفاؤل
والبشر لا أحد يعرف على وجه التحديد ، سرها ، سر الابتسامة
التي لا تغيب حتى عندما تناول فايزة الطبيب مبضعا في غرفة
العمليات ، أو وهي تجرى مسرعة في ردهات المستشفى لتلحق
بالصيدلية قبل اغلاقها لاحضار الأدوية وقد تصور طبيب عاش
سنوات في لندن ، أن فايزة لابد وأن تكون قد تعلمت أصول
التمريض خارج البلد ، فهو لم ير ممرضة تعمل في مستشفيات
الحكومة ، تبتسم أبداً ، ثم ان فايزة لطيفة ورقيقة ، وتبدو - رغم
انطباع بصمات الزمن على وجهها - كفتاة صغيرة ما زالت في ربيع
العمر ، تعيش حالة من العشق الدائم ، خصوصاً عندما تنتهد
تنهدات ناعمة ، وترسل نظراتها الحاملة الطويلة ، التي دفعت
المرضى مرات كثيرة الى محاولة تقبيلها أثناء الليل ، عندما تكون
مناوبة ، وهي تعطيم الدواء أو تحكم وضع الأغذية عليهم ، لكن

الحقيقة ان فائزة كانت تردهم بهلوى وحزم دون ان تعنفهم ، وتعاود
الابتسام من جديد .

فائزة نفسها لم تكن تدرك سر هذه الابتسامة ، ربما لأنها لم
تفكر فيها أبدا ، وربما لأن الحياة لم تمنحها الفرصة للتفكير في
نفسها كثيرا ، فأما ماتت قبل أن تلدها ، ولولا وصول سيارة
الاسعاف في الوقت المناسب ونقلها الى المستشفى ، حيث تم فصل
اللحم الميت من اللحم الحي ، لكانت فائزة في خير كان ، ولما رأت
عينها الدنيا أبدا ، ثم انها شربت هم الزواج قبل الأوان ، فبعد
أن حاضت ، للمرة الأولى ، بسنة وتمدد جسدها بالطول والعرض
تملدا كافيا لاقتناع الرجال بها كامرأة صالحة للمضاجعة وانجاب
العيال ، زوجها أبوها لأول طارق طلب يدها وكان الأب ينشد
ابعاد العبد عنه ، وراحة البال لنفسه ، ولا ينته هدوء السر
والسترة ، اذ تصبح ألمائة في عنق رجل آخر يعينها على عوادي
الزمن ، وأفعال أولاد الحرام الطامعين في الولايا وبنات الناس ،
اللواتي لا حول لهن ولا قوة ولا سند في الحياة .

وفائزة بعد أن تزوجت المدعو عباس ، خلفت قبل اكتمال
العام ، واستمرت تخلف حتى صار لديها شيلة من الصبيان
والبنات ، أولاهم بنت داخلة في سن الطيش والنزق ، وأصغرهم
صبي لم يبلغ الرابعة بعد ، تجرى وراءه فائزة بعض الأحيان في
البيت للتضربه وتلمه من الحارة كلما غافلها وخرج ، ثم انها تغسل
وتمسح وتكنس وتطبخ ، وتلدور في حجرات الشقة ، ولا تنتهي
دوامه همومها ، منذ صباح ربها ، الذي يبدأ بإعدادها للطور ،
وايقاظ العيال من النوم ، ثم الجرى بعد حوالى ساعة من ذلك ،
وراء الأوتوبيس ، للحاق به والوصول الى المستشفى في الميعاد
المرسوم ، الذي تحافظ عليه فائزة محافظتها على روحها ، منذ أن

تعينت كمرضة في المستشفى الذي تقف بين جدرانها ، وقوف
الديدبان طيلة سبع ساعات يوميا وربما أكثر حيث تراقب
المرضات اللواتي تترأسهن وهن يخدمن المرضى ، خشية أن يسرقن
دواءهم أو طعامهم ، وتتحمل مخافات هؤلاء المرضى الذين يأتي
معظمهم من القرى البعيدة ، للعلاج المجاني في مستشفى الحكومة ،
فتواسيهم وتسايروهم في الكلام والحديث ، وتأخذهم على قدر
عقولهم وفهمهم . بينما تفرز حقنة في عجيذة أحدهم ، أو تقص جلدا
مهترئا حول جرح متقيح لآخر ، وعندما يتألمون ويكيلون الشتائم لها
ولأطباء مستشفى الحكومة ، وللحكومة نفسها ، ورئيس الجمهورية
عند اللزوم ، تبسم وتواسيهم مطيبة خواطرها ، وتطمئنهم أنهم
سيستريحون بعد قليل ، وحتى عندما يطلبون منها طلبات ربما
لا يتجرا الشيطان نفسه على طلبها ، كانت تلبسها لهم عن طيب
خاطر أو تسهرهم بلطف ، وقد أوشكت ممرضة أخرى في إحدى
المرات ، أن تنقض على رجل عجوز لتضربه ، عندما لاحظت أن فائزة
أخته بالمبولة ما يزيد عن ست مرات خلال ما يقل عن ساعة ، لأنها
كانت تدرك أن الرجل لم يكن محصورا ويكذب رغبها في التلذذ
كلما راحت فائزة تدس المبولة تحت فخذيه وتلامس يديها جسده .

الشهادة لله ، ولجميع من تعاملوا مع الممرضة فائزة ، أنها
كانت حالة نادرة بين الحكيمات والمرضات ، اللواتي هن في واقع
الحال زبانية العذاب في مستشفيات الحكومة ، ومنها المستشفى
الذي تغادره فائزة كل يوم وأقدامها تكاد أن تنفجر في داخلها
الشرايين والأوردة ، لكثرة اندفاع الدم فيها ، بسبب الوقوف
المستمر الذي يتواصل في البيت عند عودتها لكنها لا تمل من شغل
البيت المفروض عليها فرضا ، بحكم كونها زوجة وأما للعيال ، الذين

لا تنتهي طلباتهم منذ اللحظة التي تطلّ فيها قدمها عتبية الشقة ،
وحتى إذا ما لبثت هذه الطلبات ، فثمة مشاغل أخرى تبرز أمام
ناظرها فجأة ، حيث يبرز كوب شاي فارغ ، تركه زوجها بجانب
السريّر بعد أن شربه قبل قيلولته مخلفا بداخله عقبا أو عقبين من
سجائره أو تحبل الولد ابنها الى الحمام ، وتجبره على غسل قدميه
الوسسختين ، قيسل النط على السريّر ، والدوس على الفراش
النظيف الذي سبق أن رتبته منذ قليل .

منذ اليوم الذي لبست فيها فائزة الثوب الأبيض وثبتت
الطرحه التلى على رأسها ، بعد أن نتفت شعر جسمها ووجهها وسوت
خاجبيها وزغردت لها نسوان الحارة والحوارى المجاورة ، ابتهاجا
بدخلتها ، وهى دائخة دوخة البهيمه فى الساقية فهى من البيت
للشغل ، حيث ينهد حيلها وينقضم وسطها من طيلة التوطية
والوقوف ، بينما هى تغسل وتمسح وتطبخ .

فائزة لا تشعر بلحظة حلوة فى يومها ، الا اللحظة التى تفرد
فيها طولها على السريّر ، وترمى رأسها على المخلعة ، حيث تبدأ فى
الولوج الى عالمها الليلى الجميل ، حين يأتيا ذلك الحلم الذى
لا تعرف على وجه التحديد متى بدأ ، ولماذا يستمر دون أن يفارقها
فى كل مرة تحط رأسها لتنام ، حيث تنسى الدنيا وما فيها ، عباس
والعيال ، المستشفى والمرضى ، الكنس والمسح والطبخ ، وتشعر
أنها فى عالم آخر ، ودنيا ثانية ، وأنها هى ، فائزة .. ليست
فائزة أبدا ، ولا علاقة لها بالمرضة فائزة ، لأنها تكون فى هذه
اللحظات واحدة جميلة ، جميلة جدا ، أحلى من بنات السينما
والتلفزيون ، وحتى حوريات الجنة ، اللواتى يحكون عنهن
ولا تشبه فائزة التى ترى صورتها كل يوم فى المرآة ويعرفها الناس ،
يجفونها المنتفخة ، وبشرتها الشناحية ، وشحمها المترکز حول

أكتافها ومؤخرتها ، وتشققات كعبها التي تبدو كتشققات أرض
بور جففتها أشعة الشمس ، فائزة التي يعلو صوتها بين الحين
والآخر ، وهي تزعق في ابنها الصغير ، وتتصعب قائلة « اسكت
يا مقصوف الرقبة وجعت قلبي » .

كانت عندما تكتمل تماما صورة فائزة الأخرى بعينيها بينما
يتسلسل الى أذنيها صوت شخير زوجها ، مختلطا بصغير صرصور
مناوب في عفشة المياه ، تجد فائزة نفسها في أحضان شاب جميل ،
طويل فارع ، تشكلت ملامحه من صور كل الرجال الوسيمين الذين
رأت صورهم في المجلات أو التفتهم في الحياة ، انه حنون ورقيق
أيضا ، يمسح على رأسها مواسيا ، يقبلها بين حاجبيها ، ثم يجذبها
الى أحضانها ويطوقها بذراعيه ، وبعد أن يستمر على هذه الحال
فترة ، يسألها هامسا ان ترحل معه بعيدا .. بعيدا .. عن الدنيا ،
الى مكان هادئ نظيف ، ليعيشا معا في تبات ونبات ، دون أن
تخلف له صبيان وبنات ، يوجعون رأسها بالشيل والحط ،
والمسؤولية عندئذ ، تشعر فائزة أنها حمامة بيضاء ، محلقة في
السماء الزرقاء ، بالفرح والنشوة ، وبعد أخذ وعطاء مع حبيب
الحلم ، تعود فائزة فتطوقه وتقبله مرة أخرى ، وتقول له سأذهب
معك يا روحى الى نهاية الدنيا ، فأنا لا أستطيع الحياة بدونك
وبعيدة عنك مهما كانت الظروف .

لكن ... دون أن تدري ، كيف يجرى لها ذلك على وجه
التحديد ، ترتسم فجأة في عينيها المغمضتين بقوة ، وعلى نحو بالغ
الوضوح ، صورة ابنها الصغير ، يبتسم لها ببراعة ، قافزا ، ليطوق
رقبتها ويمطرها بقبلات كثيرة ، فتفريق قليلا وتشعر بقلق وتتقلب
في فراشها ، ثم تزيج زوجها لينام على جنبه الآخر ، ليكف عن
الشخير ، قبل أن تستسلم لسبات عميق .

ما جرى لبوسى

كقطرة المطر المتساقطة على طرف أذنها ، سارت وحيدة شاردة ، تلازمها الحيرة ، ولا تدرى على وجه التحديد ذاك الذى حدث لها .

فعلى عادتها كانت قد رقدت متكومة على حاشية المقعد الطرية ، تستمتع بمتابعة رقااص الساعة المواجهة لها على حائط من خلال فرجتى عينيها ، وهى تهرفى رضى . كان يتحرك مرة لليمين وأخرى لليسار ، والسيدة ذات الشعر الذهبى تسحب أنفاس سيجارتها وتنفثها بلطف ، عندما عبق الجو فجأة برائحة غريبة لم تعرفها بوسى من قبل ، كانت رائحة تنفذ الى داخلها ، وتطغى على رائحة طلاء أظافر السيدة ، التى كانت مشغولة باستخدامه ، وعلى رائحة اللحم اللذيذة التى كانت تهب من المطبخ بين الحين والحين .

نهضت وقوست ظهرها وتمطت وهى تتثائب حتى بان حلقها ، وراحت تجوب برأسها وتحرك شواربها متشمة الهواء ، وترسل بوقى أذنيها فى كل الاتجاهات ، عليها تسمع صوتا ، وشيئا فشيئا ، اعترتها آلام من نوع غريب ، كانت فى البداية ضعيفة خافتة ، ولكنها سرعان ما اجتعت واجتاحتها ، وسيطرت على كل حواسها ، ولم تكن كالآلام الجوع أو الحاجة لقضاء حاجتها ، التى تجعلها تموء فى رقة ولطف ، بل آلمتها فجعلتها تصرخ غير قادرة على النوم ،

وزاهدة في مداعبة خيوط السجادة ، وسرعان ما فقدت شهيتها للطعام ، وظلت تتلوى على الأرض من حين لآخر .

وفي اليوم الأخير قبل أن تذهب ، جاء رجل ضخم ، ووقف ينظر الى السيدة ، وهو يمد شفتيه في امتعاض ، ويطلق أصواتا مختلفة أخافت بوسى ، وجعلتها تختبئ في مكانها المفضل خلف أفروديت الرخامية الجميلة ، الواقفة في الركن ، والسيدة تشيع بيدها ، فتتحرك معها أساورها الذهبية اللامعة ، مما جعل لدى بوسى رغبة لا تقاوم في أن تقفز وتلامسها بأظافرها .

وعندما جاءت البنت الصغيرة ، التي كانت تضع لها اللحم في الطبق الكبير ، واللبن في الطبق الصغير ، من المطبخ ، وهي ترتدى فوق رأسها ذلك الشيء الملون ، الذي كانت القطة تميزها به عن الآخرين ، وظلت تبحث عنها تحت الأريكة والكراسي المذهبة والمنضدة الرخامية ، حتى عثرت عليها ، في مكننها ، فرفعتها برفق ، وفكت الشريط الحريري الأحمر ذا الجرس الفضي عن رقبتها ، ثم فتحت الباب ، وسارت بها بعيدا بعيدا ، ثم تركتها وذهبت .

ثلاثة أيام قضتها بوسى في ذلك المكان . تضارع القطط ، ويتصارعون عليها ، كانت في البداية خائفة مذعورة من نباح الكلاب ، تحديق بدمشة في تلك الأكوام الهائلة من الأشياء ذات الرائحة العفنة ، وتبحث عن أماكن طرية مريحة ترقده فيها مثلما كانت تفعل في البيت القديم ، بحثت عن الطبق الكبير والطبق الصغير ، ولكنها لم تجد لبنا ولا لحما ، أما الدياب الذي كان يحوم حولها في النهار ، والناموس الذي يلسعها في المساء ، فكان أشد ما يضايقها . الشيء الوحيد الذي ارتاحت له بوسى في ذلك المكان ، كان اختفاء تلك الآلام الرهيبة التي داهمتها من قبل .

وها هي تشرك ذلك المكان هاربة ، عندما زمجرت السماء
ونسقط المطر ، وما زالت تجرى وتنط ، وترغب في أن تتوقف قليلا
ريثما تستريح وتلحق فراءها المبتل ، لكن لم تكن هناك فرصة لذلك ،
وراحت تتقافز بجانب الجدران رعبا من الخطى الآدمية التي راحت
تتجاوزها ، بسرعة عندما تلاحقها ، وفكرت أن تتوقف أمام دكان
اشتتت منه رائحة لحم ، لكن العجوز المتربص على بابه لم يمهلهما
لتفكر ، لقد أشاح لها بمقشة طويلة ، فلاذت بالفرار .

عندما توقف المطر وبانت النجمات لامعة في السماء ، توقفت
القطرة لاهثة ، ترقب الأشياء في حزن ، وترغب في الأكل والدفء
والنوم ، وظلها يرتسم على أسفلت الرصيف ، في ضوء العربات
المسرعة ، مرة كبيرة يصعد الجدران ، وأخرى صغيرة باهتا . وكانت
تلحق فراءها المبتل ، ونستريح ، عندما تحسست تيارا واهنا من
الدفء يسرى الى جسدها بين الحين والحين ، نفضت فراءها مرة
واحدة لتزيل ما تبقى عليه من قطرات ، وترقبت مستطلعة ،
وسرعان ما مرقت من خلال الأسياخ الحديدية الصدئة ، وزجاج
الشباك المكسور الذي كان بجوارها يطل على أرضية الشارع ،
ونهب منه النسمات الدافئة ، وبقفزة واحدة رشيقة، ألقت بجسدها
على بلاط الحجرة العاري .

التمع البؤبؤ واستطال في عينيها ، وهي تدور ببصرها على
الجدران المغطاة بصور كثيرة ملونة ومسامير بارزة وقد علقت عليها
ملابس كالحة ، وكانت قطع الأثاث القليلة ، قد استندت الى
جدران ، باهتة ، تكاد تتداعى . حدثت القطرة بشدة ، حيث كانت
تجلس امرأة على الأرض ، تتوسط كومة من العيال ، حول طبلية
صغيرة ، يغمسون أيديهم في الأطباق ويرفعونها إلى أفواههم
بسرعة .

وكانت المرأة تضع على رأسها الغطاء الملون نفسه ، الذى كانت تميز بوسى به البنت الصغيرة ، واضعة اللحم فى الطبق الكبير ، واللبن فى الطبق الصغير .

تعجبت القطة وخافت ، ولكنها سارت تتهاذى عندما دعاها الولد ، الذى كان أنفه يسيل على شفتيه قائلاً :

بس . . . بس . . . بس والذى هب من مكانه ، وعيناه تضحكان فى مرح ، وراح يحملها فى حضنه ، وثقلها يجعله يتحرك بها بصعوبة .

استسلمت فى رضى ، فمنذ أيام لم تلق حنانا من أحد ، ولم تربت على ظهرها أو تداعب رأسها يد ، فقط تضايقت من ملمس أصابعه المبللة بالزيت ، وهى تتحرك على فرائها فودت لو يطلقها لتلعبه .

هتفت المرأة لمرأها :

— قطة حلوة . . . خلوها عندنا تأكل الصراصير ، وتصيد الفئران .

وألقت إليها بلقمة خبز سوداء مغسوة بزيت الفول ، تشممتها القطة وابتهغت عنها متافقة ، وواصلت المرأة ابتلاع طعامها فى نهم .

أما الصغار فتدافعوا حولها يتلاعبون ، ويضع واحد يده على رأسها ، وراح آخر يتحسس ذيلها ، وثالث يبحث عن موضع أئدائها ، وهى تتحمل ذلك على مضض ، ولكنها لم تطلق صبرا ،

عندما حاول الصغير الزاحف على بطنه أن يجذبها من شواربها ،
قرفمت يدها مهددة ، وهي تنفخ في وجهه ، فخاف وتراجع باكيا .

عندئذ . هتف الرجل الذي كان يجلس في الطرف الآخر من
الحجرة بعد أن ابتلع نفسا طويلا من « البورى » ، دافعا بسحابة
زرقاء من الدخان أخفت ملامحه :

— اطردها .. يظهر أنها مسعورة .

بعدها .. أخذت القطة تجرى ، وأخذت قديمة وعلب فارغة
تطير نحوها في الهواء ، وانطلقت من حيث جاءت بأقصى سرعة
استطاعتها ، ومرة أخرى كانت تشير على الرصيف .

صفرت الريح لافحة عظامها ببرودة مؤلمة ، وكان أنفها يبتل
بللا ضايقها ، والجوع والتعب يدفعان بها لأن تطلق مواء حادا
مستجديا ، وكانت تخاف أن تقابل قططا أخرى في تلك الليلة التي
لا تقوى فيها على صراع أو مشاحنة .

مرقت من بوابة مظلمة ، وراحت تقفز درجات سلمها دون
أن تتوقف ، وأنفاسها تكاد تسكت عنها ، وعندما واجهت سطحا
فسيحا توقفت ، لم يكن فوقها غير السماء والسحب الرمادية
الداكنة ، لمحت القطة الضوء الخافت يتسرب من فتحة الباب الذي
يتوارب عندما تدفعه الريح ليعود ويرتطم بافريزه الخشبي .

مرقت منه في حذر بعد أن دفعته بيدها قليلا ، وراحت ترقب
الأشياء ، لم يكن يتحرك أمامها غير جسد امرأة ، وهي تنحنى بين
الحين والحين حتى تلامس جبهتها الأرض ، وتعود لترفع هامتها
متمة .

رغبت القطسة في أن تقفز وتختصها في ضيقها الضوئية
البارزة من طرف وشاحها ، والتي كانت تتحرك مع حركتها ، ولكنها

اشتتت رائحة أكثر جاذبية ، جعلتها تسحب هواء كثيرا الى صدرها ،
وبسرعة قفزت الى حيث كانت علبة السالمون موضوعة على المنضدة
المكسورة في الركن ، أدخلت رأسها في داخلها ، فهوت على الأرض
لتبرز منها نصف سمكة فضية هزيلة ، راحت تلتهمها في نهم وهي
تتوقف بين وقت وآخر ، عليها تجد أحده ينوي اقتسامها معها .
كانت لا تصدق أنها تأكل في تلك اللحظة ، وعندما فرغت من
السمكة لعقت جدران العلبة بقدر استطاعتها ، ومسحت ما تنأثر
منها على الأرض بلسانها الخشن في تلذذ . راحت تسمع فراءها
الأسود فالتمع ، ومسحت وجهها بيدها ، وخلصت ذيلها من
أقذاره ، وبينما هي تستعد للقفز فوق السرير ، الذي اكتشفته ،
لتمدد بين الأغطية ، تسمرت وفتحت عينيها عن آخرهما في وجه
المرأة التي كانت قد انتهت من صلاتها ، وراحت تخرج المسبحة
من صدرها ، وتتمتم بالحمد . أعجبت القطة حركة الأصابع وهي
تعد حبات المسبحة الصفراء في وتيرة سريعة منتظمة ، وكانت
لا تمانع في اللعب الآن ، أما المرأة فقد أسفت على ما حدث
للسالمون ، وثارت بها رغبة في ضرب القطة وطردها ، ولكن الليل
والظلام وتلك الدهشة والنظرات الغريبة في عيني القطة جعلتها
لا تفعل . حوقلت ونظرت اليها ، واستعاذت بالله من الشيطان
الرجيم . كان فراء القطة الأسود الداكن ، ونظراتها الثابتة التي
لا تحيد عنها ، يجعلان شعورا مبهما من الرهبة يسرى في روحها ،
وتعترىها اهتزازات خفيفة يتحرك لها الوشم الأخضر أسفل ذقنها .

ألقت المرأة بالبسملة كاملة ، والقطة جالسة ما زالت تحديق
بها ، لكن هديرها سرعان ما تصاعد في رضى . تنفست المرأة
بمراحة ، فربما كانت تلك للزوج الطيبة التي تصلى أمامها ، والتي
جاءتها في جنيد قطة ، هي روح ابنها المتوفى ، وقد أثبت لزيارتها .

..تشبهت بصوت مرتفع ، ونادت على القطة ضاربة على فخذيها ضربات خفيفة ، نظرت القطة في دلال ، ويبت كما لو كانت لا ترى ، لكنها سرعان ما سارت اليها ، وقفزت لتستقر على فخذيها في انتظار أن تمسح المرأة على رأسها ، أو تداعب تلك الأماكن الخشنة في ذقنها ، والتي لا تستطيع أن تنظفها جيدا .

فكرت المرأة بروح ابنها الطاهرة ، وإطمأنت الى أنها قد حشرت في زمرة الأخيار ، فالقطة كانت تقرأ أوراها لداود الملك - أبو الأنبياء وسيد الجنة والحيوانات - وصدقت المرأة اعتقادها قائلة لنفسها « لو كانت روح نجسة لجاءت في جسد كلب » ، وتذكرت !بنها ، ودموع كثيرة تنسكب من عينيها ، وفكرت كيف بذلت بذلك حياتها من أجله ، وربته ، ولكنه راح منها منذ سنوات ، وما هي لا تستطيع الا أن تظل هكذا ، تنتظر روحه لتأتيها وتطل عليها . فكرت في أن تحادثه وتقول له : « يا محمد يا ضناى لا تعجزن لأننى لم أزرك في العيد الكبير ، فلقد كنت مريضة ، ولم أستطع التحرك لمدة أسبوع ، ولكنى وزعت الصدقة على روحك للمساكين ، مثلما أفعل دائما » ، وبأن تقول له أيضا كيف أنها ندبت وولدت يومها وما خلت . كانت ترغب في أن تقول له أشياء كثيرة عن حياتها بعده ، ولكنها خافت من أن ترفع صوتها يمثل هذا الكلام في حضرة الروح ، واطرقت خاشعة فالروح ما زالت تقرأ صلواتها للنبي داود .

تضايقت القطة من الدموع التي سالت على رأسها ، فراحت تحكه في صدر جلاباب أم محمد الأسود الخشن . هاجت مشاعر المرأة وتذكرت حنان وحيدها الراحل ، وهمست لحالها متصعبة : « كنت في شوق لهذه الزيارة من زمان يا ولدى ، وربتت على ظهر القطة فماتت طالبة المزيد من الحنان ، ظنت المرأة ان بوسى

عطشى ، فنهضت وعادت إليها بإناء صغير من الماء ، تشمته القطعة ، ونظرت فيه ، ومدت لسانها تذوقته ، ولكنها ابتعلت أنفه . فكرت المرأة فور أن تجلسها لتستبقها ولا تدعها تخرج ، ولكنها خافت ، واستعادت بالله من وساوس الشيطان ، وهل تجرؤ على حبس روح تسرى في الليل ؟! . جلست على حافة الفراش ، فقفزت القطعة الى جانبها ، وفكرت المرأة أن تأخذها في حضنها مثلما كانت تفعل مع وحيدها الراحل وتهدهده . راحت تبكي وقد صعب عليها حالها ، وشعرت بأنها وحيدة بائسة ، بينما كانت القطعة قد رقدت بجانبها ، تتصاعد أنفاسها دافئة وتمطى بين الأغصان .

كان النعاس قد بدأ يداعب المرأة ، وبدأ غطيها يعلو وهي تحلم بأن وليدها في حضنها يقاسمها الفراش ، عندئذ كانت القطعة قد ملت الرقاد ، وقفزت الى الأرض باحثة عن نصف سمكة فضية أخرى .

زينات في جنازة الرئيس

المفروض ان اسمها « زينات » لكن الكل كانوا ينساديونها « زينات » حتى عبده المزين ، عندما كان ينتهي من خط رسالة ، بالنيابة عنها ، الى رئيس الجمهورية ، الذي دأبت على مراسلته ، كان يذيل ما يكتبه باسم « زينات محمد علي » وذلك بعد أن يثبت القلم بين أصابعها جيذا ، ثم يطبق على يدها بيده ويحركهما معا ، ليكون الامضاء بيدها فعلا ، وزيادة في تأكيد ذلك ، كان يبذل قائم الكوبيا بريقه ، ويلون به ابهامها حتى تتكون بقعة بنفسجية كثيفة ، تكفي لطبع بصمة واضحة المعالم ، فوق حروف الاسم ، الذي كتباه معا .

ويمكن القول انه خلال السنوات الأخيرة من حياة الرئيس ، نشأت بينه وبين زينات علاقة خاصة جدا ، مع أنهما لم يلتقيا خلالها أبدا وجها لوجه ، الا انه ، ورغم كل شيء ، يصعب القول انها علاقة من طرف واحد ، صحيح انهما لم يلتقيا ، ولم يتسن لزينات أبدا أن تحدثه ، وتقول له بلسانها كل ما تود قوله ، لكن العلاقة المستمرة بينهما وصلت الى حد انها رتبت خطبة ، تصورت انها دقيقة ، لا تخر المياه ، لكن الأيام ، وساعة التطبيق ، أثبتت فشلها فشلا ما كان يخطر ببالها وخاطرها أبدا ، بل وأكثر من ذلك ان عبده المزين نهروها بشدة ، وحذرهما من مصاردة عملتها المجنونة تلك ، لأن الله ستر هذه المرة ، وكان ممكنا جدا أن يأخذوها

— زينات نفسها — ويخفوها وراء الشمس ، دون أن يعرف الجن الأزرق قرارا لها ، بل وقال انها عبيطة لأنها تصورت انهم سيسمحون لها بالاقتراب ، الى هذه الدرجة من رئيس الجمهورية ، محاولة مصافحته ، اليد باليد ، وتسليمه العريضة ، ثم هل نسيت العسكر والمخبرين والحرس ، الذين يحيطونه من كل ناحية ، مطرح ما يروح ؟!

والحقيقة ان نصائح عبده لزينات لم تكن أكثر من تحصين حاصل ، لأنها جربت بنفسها كل كلمة قالها ، فبرغم أنها كمنت ، من طلوع النجمة ، على ناصية شارع من الشوارع ، التي تعرف أن الرئيس يمر بها ، كل مرة ، بعد صلاة الجمعة ، ورغم أنها استطاعت ، كنتيجة لذلك ، الحصول على موقع متقدم جدا بين الجموع ، التي تقاطرت لتحية الرئيس ، بعد أن كتب لها تلميذ من تلاميذ المدرسة ، رسالة صغيرة ، نوت زينات أن تسلمها للرئيس ، لتكون كلمتين ورد غطاها ، ونصها الحرفي : « زينات بتسلم عليك ، وتقول لك عملت ايه فى الموضوع اياه ؟ » ، رغم كل ذلك ، فانها فى اللحظة التي تصورت فيها أن سيارة الرئيس قريبة منها بما يكفى ، لتخطو تجاهها ، بسرعة ، وتهجم عليه ، لتصافحه وتسلمه الورقة ، فوجدت دون ان تدري بعشرات الأيدي الغليظة ، لعسكر ورجال آخرين ، برزوا فجأة ، كما لو أنهم سقطوا عليها من السماء ، وراحت تدفعها بعيدا عن السيارة والموكب ، لتسقط بين الأقدام ، التي لاحظت زينات ، ساعتها ، أن عديدا منها مغطى بأحذية جلدية عالية ، ثبت فى بعضها طبنجات تكفى لجزر بلد .

لكن هذه الحادثة المؤسفة ، وفظاعة الآلام ، التي عانت منها زينات بعد ذلك ، لم تحل دون استمرار غلاقتها بالرئيس ، ولم تغير نفسها ، من ناخيته أبدا ، كما ان صورته فى عشتها بقيت فى

مطرحها ، كما هي ، تلك الصور ، التي لم يكن أي شيء سواها يزين العشة ، التي بنتها زينبات ، بنفسها ، من الحجر والطوب والصفيع ، بعد أن استولت على بضعة أمتار من أرض الحكومة ، على جانب الطريق العمومي ، حيث تجلس أمامها ، مناوبة ، من الصبحية ، حتى قرب غروب الشمس ، في انتظار دخول وخروج تلاميذ المدرسة الابتدائية ، التي كانت ، في الواقع ، ثلاث مدارس في مدرسة واحدة ، يدخل اليها الأولاد والبنات ، على دفعات ، للدراسة ، وكانت زينبات تبيع لهم العسلية والفشار والترمس والخاب بلاستيكية صغيرة ، تكون من حظ أولئك الرابعين في لعبة الحظ ، التي يشترونها منها .

أما تشييع الرسائل للرئيس ، فزينات لم تتوان عنها أبدا ، مما يؤكد ، مرة أخرى ، أن العلاقة بينها وبين الرئيس لم تتعكر ، وأنها فضلت صافية ، لبن ، وكانت زينات تشوف الحادث على أساس أنه جرى من وراء ظهر الرئيس ، لأنه لو درى أن أولاد الحرام ، إياهم ، منعوها من السلام عليه وتسليمه الورقة ، لكان ، ولا بد ، يروحهم وراء الشمس ، فهو يفهم ، ويعرف نية زينات ، وأنها لا يمكن أن تقصد أذيته ، والا ، ولو كان الأمر عكسه ، لما كان رد على خطاباتها له ، أكثر من مرة ، وما كان موضوعها جاريا نظره في الحكومة ، وما كان أرسل لها موظفة من الدولة ، لتعائن العشة بنفسها ، وتشوف بعينها حالة زينات ، وتسألها أسئلة كثيرة عن أحوالها ، وأحوال الدنيا معها ، بل إنها أكلت لها أن موضوعها سيخلص ، خلال الشهور القليلة القادمة .

والشهور القليلة ، التي قلت ذلك ، لم تخيب ظن زينات بالرئيس ، بل ويمكن القول أن الخطة ، التي رسمتها ، على ضوء تصريحات موظفة الحكومة ، قد نجحت هذه المرة ، والواقع أنها

خطة تنمية صغيرة ، رسمتها زينبات لنفسها ، تتلخص خطوطها .
العريضة في أن توسع على روحها في الأكل ، بين الحين والحين ،
وفي سبيل ذلك تشتري وابور جاز ، وحلة المونيا لتطبخ فيها كلما
هفت نفسها لأكلة لحم ، كما ستقوم بشراء جلابية قطيفة زبدة ،
وقمطة بالخرز ، بدلا من جلابيتها المقطعة . وقبل كل شيء ، وبإذن
واحد أحد ، سوف تسدد ديونها المنظورة ، التي تتلخص في جنيهين
لعبد المزين ، آخر دفعة تبقّت له من دين قديم ، استلفته منه ،
لتشتري بضاعة جديدة تتاجر فيها ، وكذلك ديونها غير المنظورة ،
والتي هي عبارة عن عدة دعوات من أخيها ، صاحب العيال ، لأكل
اللحم ، وعدة خمسينات قروش ، كان يمدّها بهم ، عند أول كل
شهر ، وقد عزمّت زينبات على زيارة أخيها ، باثنين كيلو لحم ، عندما
تمسك الفلوس بيدها . وقبل كل شيء ، زوج فراخ محترم ،
وزجاجة شربات ورد ، هدية خالصة لعبد المزين ، نظير عطفه عليها ،
وخدماته لها في كتابة الرسائل لرئيس الجمهورية ، وهي الخدمات ،
التي كللت أخيرا بالنجاح ، حيث تقرر صرف معاش استثنائي لها ،
قدره ثلاثة جنيهات ، بالتمام والكمال ، أصبحت بسببهم تذهب
شخصيا ، وبكل فخر وثقة واعتزاز بنفسها ، وبرئيس الجمهورية ،
إلى خزنة الحكومة ، في طلعة كل شهر ، لاستلامهم بعد إبراز
السيركي اللازم لذلك ، بالإضافة للبطاقة الشخصية التي حرصت
زينبات عليها ، بعد استخراجها ، حرصها على عينها ذاتها ، ولا أدل
على ذلك من أنها تحفظها في مغلف بلاستيكي ، اشتريته بشلن كامل ،
كما أنها تدسها تحت فراشها ، وتتأكد من وجودها في مطرحها ،
كل فترة ، ليس بسبب المعاش ، والسلام ، ولكن لأنها حطتها في
عين عسكري البلدية بكل ثقة بالنفس لما حاول الاحتكاك بها
وابتزازها أثناء شوقه شغلها ، وراح يهددها بسحبها للقسم لكونها
بدون بطاقة . فرجع مخذولا وقفا كالرغيف الساخن ، بعد أن
مسخرته ، ووضبته بالكلام الشديد .

لكن الثلاثة جنيهاً لم تكن مسك الختام في موضوع العلاقة مع رئيس الجمهورية ، فرغم أنها استلمت دفعة فلوس لم تكن لتحلم بها طوال عمرها ، وتبلغ قيمتها ثمانية عشر جنيهاً ، لأن قرار حصولها على المعاش صدر بأثر رجعي ، يحق لها بموجبه أن تتقاضى عن مدة ستة شهور ، ورغم أنها عملت الهوايل بهذه الفلوس ، فاشتريت طوباً أحمر جديداً أكملت به جدران العشة ، بعد أن أزال الحجر والصفيح ، وفتحت شباكاً ، يدخل منه الهواء والنور الى داخلها بالراحة ، ووسعت على نفسها ، حتى أنها اشترت فرجة كاملة ، تلذت بأكملها ، وحطها ، دون مشاركة مخلوق ، لئلا تنسى ، خصوصاً عندما كانت تدفع باللحم المسلوق الى فمها ، مخلوطاً بالأرز المطبوخ ، المندى بشوربتها الساخنة ، رغم كل ذلك . . ورغم التغيرات الجوهرية ، التي طرأت على حياة زينات ، وكان منها أنها توسعت في حجم البضاعة ، التي تتعامل بها وأدخلت عليها أصناف جديدة ، كأقلام الرصاص والمحايات ، إلا أن عبده المزين « سلمت يده ، وحفظ الله له نور عينيه » ، وفقاً لنص دعوات زينات الصادقة الصدوقة له دوماً ، أشار عليها أن تستأنف العلاقة ، وتداوم على إرسال الخطابات للرئيس ، على أن ترتفع فيها نغمة الشكوى ، أكثر ، وتتنظم طالبة زيادة في المعاش ، بحكم أنها ولية وحيدة ، لا عائل ولا معين لها في الدنيا ، ولا سامع لشكواها غير الله ، ورئيس الجمهورية .

وبصراحة ، فاق الجهد الذي بذله عبده المزين ، في كتابة الخطابات الجديدة ، كل مجهوداته في كتابة خطابات المرحلة الأولى ، التي توجت بحصول زينات على المعاش ، وذلك لأن القانون الصادر ، بهذا الشأن كان واضحاً ، فيما يتعلق بحق زينات في المعاش ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فالخطابات الأولى كانت مبررة ، لأن زينات لم تكن قد حصلت على المعاش بعد ، أما الآن

فتلبية طلبها سيكون على نحو استثنائي ، وبناء على توجيهات رئيس الجمهورية ، والذي يمكن أن يأمر بذلك عندما يشعر ، من خلال الكلام المكتوب له ، بحقيقة أوضاع زينات ، وظروفها الصعبة ، التي تصعب على قلب الحجر نفسه وتفتته .

لذلك فإن عبده المزين حك قريحته ، حكا شديدا ، ليخرج عصارة قدراته البلاغية ، في محاولة للتأثير على الرئيس بما يكفي لاصدار الأمر اللازم لزيادة المعاش ، لكن يبدو أن مستوى ما يكتبه كان ضعيفا على نحو أو آخر ، لأن رداً واحداً لم يصل من الرئاسة . يتعلق بمصير تسعة خطابات ، كتبهم عبده ، على يد زينات نفسها . بهذا الخصوص ، لذلك وقبل سماع زينات للنبا العظيم بأيام ، كان عبده المزين قد وصل الى قمته البلاغية في كتابة الخطاب العاشر للرئيس ، ولا يمكن انكار أن زينات ، نفسها ، شاركت بجهد لا ينكر في كتابة متن هذا الخطاب ، بعد أن ظلت تتباحث مع عبده في دكانه الصغير ، حوالى ثلاث ساعات ، حتى يخرج الكلام في أحسن صورة ، وقد اضطر عبده الى كتابة الكلام عدة مرات ، بعد ن ظلت زينات تعيد الصياغة ، وتمد عبده بأفكار جديدة مؤثرة . والحقيقة ان عبده ، رغم كونه طيبا وأميرا جدا ، لم يكن ليصبر ، كل هذا الوقت ، لولا ان الدنيا كانت آخر شهر ، والزبائن معدومة أرجلها على الدكان تقريبا ، ولكن عبده كان يستمتع أيضا بالكتابة ، لانه اكتشف ، من خلالها ، انه يستطيع أن يقول كلاما جميلا ، وحلوا للغاية ، تأثر به هو نفسه ، كما أن نتيجة كتاباته الأولى عززت ثقته بنفسه ، وبقدراته الكبيرة في هذه الناحية ، وهو أيضا لا ينسى هدية زينات المشجعة له ، والتي كانت ، على أرض الواقع ، ذكر بط كبير ، ألقته زينات ، لمدة أسبوع . قبل تقديمه لعبده ، فولا ناشفا ، عند كل عشية ، حتى ثقل وزنه ، وأصبح في حجم بجمة تقريبا ، وقد ترافق مع زجاجتي شربات ،

واحدة ورد ، والثانية مشمش ، وعلى أية حال ، كانت الهدية ،
على بعضها ، مفاجأة حقيقية لعبده ، الذى لم يتوقع أن تكون فخمة
ومكلفة على هذا النحو .

بالنسبة للخطاب الأخير ، كان عبده قد حاول فى البداية
تطعيم الديباجة التقليدية ، التى يكتبها كل مرة ، والمناسبة على
الشكر والحمد ، واطراء رئيس الجمهورية ، ببعض آرائه السياسية،
المتعلقة بالموقف الراهن ، ورأيه فى الأمريكان والانجليز ، ودور
الاقطاع المتحالف مع الاستعمار ، وغيره من الكلام الذى كان عبده
يحببه جدا ، وقد حاول كتابته ، ليظهر مدى اطلاعه على الصحف
والمجلات أيضا ، وكان سيتطرق ، من خلال ذلك ، الى موضوع
زينات وطلبها المذيل بأمنياتها فى اطالة عمر الرئيس . وطرح البركة
فيه ، وفى عياله ، والدعاء لله ليكفيه شر أعدائه . ومن يتشدد
لهم .

لكن زينات ، صاحبة الخطط ، كانت تحمل فى رأسها فكرة
جديدة للكلام ، فكرة تشكلت من خلال جلوسها ، كل يوم ، أمام
صور الرئيس ، ومحادثتها . فقد أحببت زينات رئيس الجمهورية
جدا ، بعد رده عليها ، وبعد حكاية الثلاثة جنيات ، وكانت تشعر
انه سندها الحقيقى فى الدنيا ، وداخلها احساس بأن صورته تؤنس
وحدها ، وتزيل الوحشة عن نفسها ، عندما تكون وحيدة بالعشة ،
كذلك قررت أن تكلمه بصراحة ، وتقول له كل ما عندها من كلام
تحبسه فى نفسها ، هكذا قالت لعبده المزين ، الذى رفض الفكرة
فى البداية ، واعتبر ذلك تدخلا منها فى اختصاصه ، لكنها ترجمته ،
وطلبت منه أن يتركها على راحتها ، « يمكن ربنا يجيب الطوبة فى
المعطوبة » . وكانت تقصد بذلك الخطاب . وعبده ، فى الآخر ،
تركها تقول ما تود قوله ، لأنه خاف أن يكون هذا الكلام هو الكلام

الشافى ، الذى سيجلب الفائزة لها ، فيحرمها منها ، وهى الولىة
المسكينة ، فكتب كل ما قالته زينات للرئيس ، حيث حكى حكايتها
من طقطق للسلام عليكم ، ومن لحظة موت أبيها ، وهى صغيرة ،
حتى ما بعد ترميها ، وهى ما تزال بنت بنسوت لم يدخل عليها
عريسها ، الذى مات مع صاحب الدكان الذى كان يعمل عنده فى
حريق ، كما روت له كيف انها ظلت بعد ذلك مع أخيها الوحيد ،
لكنها ، بعد أن تزوج ، وبقي مربوطا من رقبتة بكومة عيال ، تركته ،
وتركت الخناق ، كل يوم والثانى ، مع أم العيال ، وراحت تعيش
لوحدها فى العشة ، وحكى له أيضا انها حاولت أن تشتغل أكثر
من مرة ، دون جدوى ، وكان آخر هذه المحاولات ، التقدم لمسك
شغلة عاملة نظافة فى المدرسة القريبة لسكنها ، لكنها رفضت ،
لأنها لا تعرف القراءة والكتابة ثم بعد أن شكرته ، على الجنيات
الثلاثة ، بكلمات كثيرة مؤثرة ، وكذلك على الثمانية عشر جنيها ،
ودعت له من قلبها ، دعاء مناسبا ، قالت له : « لا مؤخدة ،
وبلا صغرة ، الثلاثة جنيات لا تكفى شيئا ، لأن كيلو اللحم دخل
سعره على الجنيه ، وكيло الترمس بقى بنص الجنيه » ، ثم فوق
ذلك ، فهى تشتري علبة الدواء ، الذى نصحتها الحكيم بالمداومة
عليه ، بالشىء الفلانى ، وحكى له أيضا أنها وحيدة ، وأنها تستحى
أن تمد يدها لمخلوق على الأرض مهما كانت الظروف ، لذلك فهى
تطلب منه ، تحديدا ، طلب الأخت من أخيها ، والعيلة من أبيها ،
وصاحب الحاجة من القادر المستطيع ، أن يزيد معاشها قليلا ،
بحيث يكفى لسد مطالب الدنيا ، ثم طلبت من عبده المزين أن
يحكى للرئيس ، بالتفصيل ، حكايتها يوم خروجه ، فى موكب
صلاة الجمعة ، وتصرف العسكر ، الذين بلا أصل ولا شرف ،
معه ، لكن عبده المزين رفض ، رفضا باتا ، هذه النقطة ، بالذات ،
لأنها قد تؤدي الى عدم وصول الخطاب الى رئيس الجمهورية ، اذا
ما فتحه واحد غيره وقراء ، واقترح ان يضيف فى نهاية الكلام بعض

الآيات الشعرية ، التي ما زال يحفظها ، من أيام الابتدائي ، لكن زينات رفضت ، وقالت له ان الرئيس سوف يفهم الكلام ، على حاله ، ولا داعي للشعر ، فاكفى عبده بخاتمة انشائية ، أكد فيها ان الشعب كله وراء القائد البطل في وقوفه ضد الاستعمار والرجعية .

زينات ، ارتاحت للخطاب جدا ، وكانت واثقة ان الرئيس ، لا بد وأن يرد عليها ، ويتخذ اللازم بالنسبة لطلبها ، لأنها كتبت له كلاما ما بعده كلام ، وكانت تعلم أن يزيد المعاش الى خمسة جنيهات ، بل وكانت قد وضعت ، في مخيلتها هيكل خطة جديدة لحياتها ، على ضوء ذلك ، فتمة هاجس داخلي ، يتسازعها ، بأن الخمسة جنيه لو اكتملت في يدها ، أول كل شهر ، لا بد وأن تكون نقلة كبرى ، ستغير حياتها ، بل وربما ساهمت في تحقيق حلمها الدائم ، ذلك الحلم ، الذي لا يغيب عنها أبدا ، بالزواج وأن تصبح أما . صحيح أنها ، في الواقع ، بعيدة عن ذلك الحلم ، لأن العمر جرى بها ، وتخطت سن الطلب ، ولأنها حتى عندما كانت في سن الطلب ، بعد وفاة عريسها ، لم ينظر اليها صنف مخلوق ، لأنها - يا حسرة - لا مال ولا جمال ولا يحزنون، لكن الجنيهات الخمسة، ربما تحرك واحدا للتفكير بها ، والحقيقة ان زينات كانت حاطة عينها على كناس عجوز تشوفه مرات ، يكنس الشارع العمومي ، الذي تجلس بالقرب منه لتبيع ، وقد عرفت منه انه هج ، وترك امرأته وعياله ، منذ سنوات طويلة ، ونزل مصر ، دون أن يعرفوا له قرارا ، حتى الآن ، وكانت نظرات خبيرة منها كفيلة بأن تخمن امكانية خروج عيل من صلبه . وفكرت ان الجنيهات الخمسة ، قد تغريه بما فشلت الطبيعة ، التي شكلت معالم وجهها وجسدها ، في اغرائه بها .

لكن الدنيا غرورة وكذابة ، وما دامت لأحد ، هكذا ظلت زينات تردد من ذلك اليوم المشؤوم ، الذي جامها فيه عبده المزين

بالنبا العظيم ، بعد أيام من ارسال الخطاب ، الذى اشتركا فى كتابته ، الى الرئيس . فلقد راحت له فى الدكان ، لتسأله ان كان قد وصل رد من رئيس الجمهورية ، لانها كانت تكتب عنوانها ، عنوان دكان عبده ، لأنه واضح ومفهوم ولا يمكن أن يتوه عنه البوسطجى - لكن المزين ، الذى انتظرتة زينات بجوار دكانه ، ما لبث أن برز من آخر الحارة ، ولونه مخطوف وأصفر كالكرم ، وهو يلطم كالحرير ، بل ان زينات ساعتها أحست ان المياه لا بد وأن تكون قد سابت بين وركيه ، خصوصا عندما رآته يندفع كالمسوس الى الراديو ، ليديره وهو يصرخ ، مات الرجل ، مات الرئيس يا عالم ، الرئيس توفى يا ناس .

ساعتها لم تشعر زينات الا ويدها نمسك بتلابيب عبده ، وقد تفجر فى داخلها غضب غريب ، غضب هائل ، جعلها تشتمه ، وتقول له : « اخرج قطع لسانك .. قطع لسانك يا عبده ، ارمى من بقك يا عبده الكلام الأسود ... » .

لكن أهالى الحارة كلهم كانوا قد تجمعوا حولها ، كانت نظراتهم تنطق بالحقيقة المرة ، التى رفضت زينات تصديقها ، مثلما عبرت عن هذه الحقيقة الدموع ، التى سالت على كل الوجوه ، كما لو كانت تسيل بفعل ضغط على زر أوتوماتيكى ، أما المشعور المنكوشة التى تساقطت عنها طرح النساء ، وآكف الرجال ، التى كانت تخطط على بعضها فى حسرة ، فقد كانت كفيلة بأن تجعل زينات توقن أنها فى علم وليست فى حلم ، فيما كان منها الا أن صرخت بالصوت الحيانى ، وصاحت صيحة عظيمة سقطت بعدها مغشيا عليها .

زينات ، ساعة الجنازة ، عملت حاجات كثيرة . فى الاول ، فضلت تدور على الحوارى ، وتلم النسوان ، يلطنن ويصوتن ، ثم

سارت وسطهن جميعا ، حتى وصلت لسكة الجنازة في الشارع العمومي الكبير ، وهناك رأت زينات خنقا كثيرا ، كأنها في يوم الحشر ، فحوقلت ، وعرفت ان الرئيس كان عزيزا وغاليا ، عند عيال ونسوان وجدعان كثيرين ، فصعب عليها أكثر ، وبقيت تشهق وتنهه كما الصغار ، وترجع تصوت وتنسب وتقول : « يا خسارة شبابك يا عيني » ، « اتخطفت قبل الألوان يا أمير » ، ألف رحمة تروح لك يا حبيبنا كلنا ، يا حبيب الدنيا كلها .

ثم فجأة تذكرت الخطاب والمعاش ، وحاولت تصور ما سيكون من أمرهما بعد ذلك ، ولما أعياها الفكر السريع ، ولم تصل الى تصور معقول للموضوع ، اهتمت وتركت النسوان ، وأخذت تركض باتجاه النعش ، بينما تتخاطبها الاكتاف والأيدي والرؤوس ، كانت قد قررت أن تلقى نظرة عليه عن قرب ، وان تلامسه بيدها ، وعندما كان النعش يكبر في عينيها أكثر وأكثر ، وتضخ ملامحه ، وتذكر انها اقتربت كثيرا ، فترمي بنفسها ، وسط الناس بقوة ، وتدفع هذا وذاك غير عابئة بما يمكن أن يجرى لها ، وعندما أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النعش ، بدأت الأيدي تمتد اليها ، باللطومات ل تمنعها ، لكنها كانت تعاود الاقتراب ، مرة أخرى ، فيمنعونها ، ثم فجأة شعرت بطعم الدم المالح على شفيتها ، وأحسست بأنها فقدت أنفها تماما .

الجنون الذي انتاب زينات ، هذه اللحظة ، يقول البعض انه حقيقى ، أما هي فتقول ، عندما تستعيد هذه اللحظات ، وتتجمد في عينيها نظرة حزينة هادئة ، أنها كانت ساعتها قد تذكرت طول انتظارها يوم موكب ، بعد صلاة الجمعة ، وما جرى لها وقتها ، لذلك وبدون شعور منها راحت ترد على اللكمات والضرب ، الموجه لها ، بضربات أقوى ، كما انها غرزت أسنانها في الذين ضربوها قدر استطاعتها .

أما فى محضر القسم ، الذى حرروه لها ، فقد قالت انها عشت
الرجل السمين ، أبو قميص أبيض جريز ، فى يده ، لانها شعرت
انه يبتسم فى الجنابة ، وانها نظرت الى وجهه عندما رمى بعصاه
صورة الرئيس ، التى كانت تحملها ، فرأته ينظر ناحيتها ويبتسم .

زينات ، التى ما فتئت تردد ، بينها وبين نفسها ، « دنيا
غرورة وكذابة » يقال ، انها بعد تحرير هذا المحضر لها بسنوات
فى القسم ، احتجزت لأيام فى قسم بوليس آخر ، بسبب اشتراكها
فى الهوجة ، التى جرت وقتما رفعت الحكومة ثمن العيش ، وانها
كانت تردد وقتها « ألف رحمة تروح لك يا حبيب الناس كلها » .
بالاضافة الى كلام كثير لا داعى لذكره هنا .

أم شحطة التي فجرت الموضوع

بعد مرور أسبوع على تلك الحوادث الفظيعة ، جلست أم شحطة ، كماداتها ، ظهرية يوم شتوى مشمس ، تغمس مشطها العظمى ، المتبقى من أيام زفافها ، فى كىروسين علبه السالمون الفارغة ، وتسلك شعرها ، بحثا عن قملة غريبة تسلت اليه من هنا أو هناك .

رمقت ديكها الأحمر الصباح فخورا بدفء الشمس ، وأصابها تحيل الخصلات الجافة جديلتين صغيرتين ، وفكرت متوجسة : « ترى .. هل ستركونه يعود من القشلاق هذا الخميس ؟ » .

أما هو ، حسين دياب ، فكان هذه الأثناء جالسا فى غرفة التحقيق ، يقرأ ما أدلى به من أقوال ، ويفكر مشحونا بأحداث الأسبوع الفائت ، تضايقه رائحة غياره الداخلى الملوث بآثار احتلامه فى اللية الماضية ، يمرر أصابعه على وجهه ، متحسسا التضاريس المستجدة على صفحته ، التى تركها المخبرون عليه بميدان رمسيس وحجز الشراية ، أثناء وبعد الحوادث ، كهدية بسيطة تؤكد أن الشرطة فى حيلة الشعب . وكان يحاول ، من قراءته للسطور ، استنتاج الصورة التى سيكون عليها قرار اتهامه ، بعد أن استنطقوه ثلاثة أيام بلياليها .

والحقيقة ، أن حسين دياب كان كمن أفاق لتوه من حلم غريب ، لم يتيقن واقعية ما يدور حوله بعد ، فصور القبضات العنيفة المضمومة في غضب ، وألسنة الحرائق المندلعة في القطارات ، والمحلات ، والدكاكين المستباحة تمر برأسه كشرائط سينمائي طويل ، وتختلط بسطور استجوابه ، وكان مشهد النسوة المتشجحات بالسواد ، كقطيع ضخم من عجول البحر ، وهن يزعنن ويصرخن ، يأتيه بقوة لا يفوقها الا قوة صوتها هي ، تلك المرأة التي ألهمت أفكاره على نحو لم تفعله أية امرأة أخرى من قبل ، وكانت بالنسبة له ، في تلك اللحظات ، بمثابة اكتشاف مذهل مفاجئ ، لا يمكن توقعه أبدا ، وهو الذي يعرفها جيدا ، منذ سكن الحارة ، ولم يكن يتوقع وهو الذي تعودها كآنسة ، غامسة للملابس ، بائعة للبيض ، ومجالسة للنسوان على عتبات البيوت ، ان تكون على هذه الصورة ، والحال ، اللذين كانت عليهما أثناء الحوادث . تتألق في الشوارع ، وتطلق من حنجرتها الحديدية صوازيخ مدوية ، تتبدد وتضيع فيها أصوات الجميع . . . جميع من كانوا وقتها هناك من سكان الوادي ، الذين تجمعوا حولها من الحارات والدروب الكثيرة . وبرغم محاولاته المتكررة لشحذ كل طاقاته الصوتية - هكذا يذكر الآن - لكن تخرج كلماته قوية واضحة ، فان صوتها ظل هو الأقوى ، حتى في اللحظة التي تصور فيها أن الجميع سيرددون وراءه « لم كلابك يانبوي » عندما بدأت عساكر الداخلية بالهجوم ، لكنه لم يسمع غير زئير واحد ، يسيطر على جميع الأنحاء ، يردد هتافها « قوم ياوحش ، شوف الجحش بيعمل ايه » .

لا ، لم يقم بالتحريض مثلما ظنوا . لقد حاول ، ولكنه فشل : وهو يعترف لنفسه ، في هذه اللحظات ، أنها هي التي خططت ونجحت في لم الناس ، وهي التي ذهبت بهم هنا وهناك ، بلحمها وشحمها الكثيرين ، رغم ما يعترى قديمها من أوجاع تعاودها ،

ويعرف جيدا أنها تحيلها ، أياما طوالا ، جثة هامدة لا تقوى على
مبارحة فراشها . لقد صدمته ، فى اليوم المشهود ، بعنفوانها
وقوتها الرهيبة ، حتى أنه يظن الآن أن الآلام فى كتفه اليسرى سببها
لكزتها السريعة ، عندما أوشك هجوم الأمن المركزى ، لتشير عليه
بالهرب قائلة : « ارجع أنت يا مضروب » . انه يتذكر الآن ، أثناء
قراءته لسطور اتهمه ، نظراتها القوية المشفقة ، التى قرأ معناها
جيدا ، وأشعرته بالغربة وسط تلك الجموع المتدفقة . « ثمة
خطأ فى المسألة ! » هكذا فكر ، وأخذ يهز فخذه هزات عصبية
خفيفة ، « كان من الأحرى أن تكون هى فى هذا المكان بدلا منى » .

- ٢ -

فكرت وهى تنس أعصابها فى مؤخرة العتقية البيضاء ، التى
حاصرتها فى زاوية غرفته ، أن « المضروب » طال حبسه أكثر
مما يجب : « ضربه » أمر مفروغ منه ، ولكن لماذا استبقوه حتى
الآن .

تطلعت فى كتبه وأشياءه المبعثرة فى أنحاء الغرفة ، وأخذت
تدسح ، بوريقة مهترئة ، الكتب والكراسات ، التى برقشتها
الفضلات الطرية لدجاجاتها ، وترفعها لتضعها على مكتبه برفق .
تأملت ماوتسى تونغ ، المنكب على وجهه بين صفحات مختاراته ،
ودققت فيه قليلا ، وتهيا لها أنه يشبه المرحوم أبو شحطة ، تحسرت
وترحمت ، وأعلنت لنفسها « يخلق من الشبه أربعين » . لكنها
ظلت حائرة ، لماذا جاؤوه . بهذا العدد الكبير من العسكر فى
« البوكس » ؟! لماذا فتشوا غرفته « المخروبة » على هذا النحو
الدقيق ، كمن يبحث عن ابرة فى كومة من رمال ؟! ، وخطر لها
خاطر : « يمكن المضروب يشتغل فى الحشيش ؟ » . والا لماذا

« تكبسه » الحكومة بكل هؤلاء العسكر آخر الليل ؟! • لكن هذه الفكرة تبخرت من دماغها سريعا ، فهي تعرفه ، تعرف « المضروب » حسين دياب معرفتها لضناها ، ونور عينيها ، شحطة ، وتعرف انه قطة مغمضة لا حول له ولا هم الا مذاكرته وكتبه • لعنت الحكومة و « البوليس » ، لتدخلهم في كل كبيرة وصغيرة في حياة الناس ، وحبسهم لحسين الغلبان ، بصوت لم يسمعه الا الديك المنتظر قريب منها ، بينما كانت تهش الدجاجات بعيدا حتى تغلق باب الحجر بورقة حشرتها بينه وبين الافريز •

والحقيقة أن أم شحطة ، منذ بداية الحوادث ، وحتى هذه اللحظات ، حيرها أمر حسين دياب ، كلما فكرت به ، وظنت أنها لم تكن تعرفه أبدا ، وهي التي كانت تراه ذاهبا ، كل يوم ، من حجرته الى الجامعة ، ومنها الى حجرته ، يحييها كلما عبر ببابها ، ويطلب منها أن تغسل ملابسه ، وتنظف حجرته ، ولقد أدهشها اصراره على متابعة السير معهم ساعة « الهوجة » واهتمامه المفاجيء بالموضوع ، كما لو كان يخصه هو ، وهو « العيل » ، المعتمد على أبيه في أكله ودخانه ومصروفه ، الذي يزيد في الشهر على ما يعطيه الجيش لشحطة ، وما تبيعه هي من بيض ، ولم تكن تتوقع أن الأمر يعنيه مثلما يعنيها ، وهي التي ضاقت الدنيا في وجهها ، بعد أن ظلت تفكر وتحسب ، وتعيد الحسبة بلا جدوى ، لتدبر المعيشة ، بعد ان مست نار الغلاء كل شيء ، وجرت فيه الجارية ، حتى الخبز والأرز ، قوت أيامها ، طالته النار ، فبكرت ، وجرت لسحتوت البقال تشتكي اليه ، وترجوه أن يتصرف ، ويسأل الحكومة والتموين عن حل للموضوع •

صحا من نومه على زعيقها فى الحارة ، اخترق صوتها الجمهورى
أذنيه ، كما النفير ، تصور أولا أنه يحلم ، لكنه سرعان ما اكتشفها ،
هى ، أم شحطة ، بصوتها « الكونترباسى » الرهيب ، تعلن : أن
« العيشة صارت مرة ، ودين النبى مرة » . كانت كنمرة جائعة
أطلقت من قفص بعد حبس طويل ، لا تتوقف عن الشنائم والسباب ،
والدعاء على الحكومة ورئيسها ، والتموين ، و « البوليس » ، وكل
من لف لفهم ، دعوات حارة ظنت أنها ستصل السماء . قفز من
سريره ، ونظر من شباك غرفته العالى المظل على الحارة حيث كانت
واقفة عند سحوت البقال ، ورآها وحولها لمة من النسوان والعيال ،
وسحوت نفسه يقف أمامها بلا حراك ، كمذنب متهم ما انفكت
تستجوبه ، وتوجه له الأسئلة ، هازئة من موقفه المتخاذل ، مشيرة
للحيثية : « مؤمن لا يعرف الدين ، مؤمن لا يعرف الحق والرحمة ،
مؤمن ولا يقف فى وجه الباطل » .

ظل هو من موقعه يرقب « الهيصه » دون أن يفهم شيئا من
الموضوع ، فصوتها ، وهى تصيح : « رغيف الخبز بقرشين ؟ !
والله حرام يا سحوت » ، يختلط بصوت سحوت ، الذى أخذ
يقول : « مثل مثلك ، لا أعرف شيئا عن الموضوع » ، معلنا تبرمه
وضيقه من اللمة التى صارت على الريق ، قبل الاستفتاح . لكن
أم شحطة تعلن قرارا مهما ؟ ستذهب الى مكتب التموين ، ستكلم
مع الحكومة ، وتطلب من موظفيها أن يتصرفوا فى الموضوع .

عاد ليستكمل النوم اللذيد ، الذى ما يزال يدغدغ أوصاله
صباح ذلك اليوم الشتوى البارد من شهر يناير . كانت صورتها
وهى تغادر الحارة ، بجلبابها الأسود ، وطرحتها المحكمة حول

رأسها ، ووراءها جمع من عيال ونسوان الحارة يلوحون بقبضاتهم
فى غضب ، يجيئه فى حلمه ، كغيمة سوداء ضخمة ناءت بحملها
العواصف . ولم يستيقظ من نومه الا وقت الظهر ، عندما هب
مذعورا ، لأنه ظن أن القيامة قد قامت .

- ٤ -

طوال « سكنتها » الى شارع عشرة ، حيث مكتب التموين ،
كانت تتحدث مع نفسها ، ومع الناس بصوت مرتفع ، يسمعه الرائع
والغادى ، وكانت تتوقف أحيانا لتلتقط أنفاسها ، فالمشوار
طويل ، وخطواتها ثقيلة ، لكنها تسير ، وتستصل ، كما كانت تقول
للذين استوقفوها وأشـاروا عليها بالعودة . ووقف معها الذين
جذبتهـم اللمة ، ولم يكونوا قد عرفوا الأخبار بعد ، حيث الوقت
ما زال باكرا ، ولم تكف عن اعلان : « البلد خربت ، سنموت قريبا
من الجوع » ، لأولئك الذين فتحوا شبابيك دورهم مدهوشين .
قالت رأيا بوضوح ، منطرة للموقف : « ناس هايصة ، وناس
لايصة ، انظروا راكبي السيارات ، انظروا الذين يقيمون الأفراح
والليالى الملاح ، ويعلقون الكهارب بألف لمبة وأكثر ، انظروا للذين
يأكلون كل يوم قثاء محلولة ، ونحن ننام على الجوع ؟! » ، انظروا
نسوان السينما والتلفزيون ؟! انظروا امرأته ، أقول لكم انظروا
امرأته ، كيف تلبس ، وكيف تخرج ، وسيرتها على كل لسان ؟!
تقول ذلك ، والناس حولها يتحسرون على خالهم ، ويؤمنون على
كلامها ، ويزيدون من عندهم تفاصيل أخرى عديدة .

جلست على الرصيف تريح قدميها المتعبتين ، تدلك بطة
ساقها اليسرى التى تشنجت ، وتعيد احكام طرحتها على رأسها ،
ودموعها تطفر غيظا وحقدا . كان الجمع الصغير قد بدأ فى التزايد
الى الحد الذى وصل فيه لبضع مئات ، برغم الصباح الشتوى

الباكر ، وبرودته المؤلمة ، وسرعان ما توجه الجميع بخطى واثقة الى مكتب التمويل .

- ٥ -

« لم أذهب الى مكتب التمويل » . ارتاح لأنه أدلى للمحقق بهذه الحقيقة ، التي يعرفها مثلما يعرف حقيقة ذهابها الى هناك ، فلقد انتزعته لدى عودتها من أحلامه ، واستيقظ على صوتها يلعلع : « ابن الكلب . . . بعد ساعتين من وقوفنا في انتظاره ، جاء ليقول لنا من طرف أنفه أن لا علاقة له بالموضوع ؟! تكلم ببرود تيس ، كما لو كنا عبيد أبيه » ، « جسمي تكسر من التعب ، والله يا ناس تعبت ، قمت من البدرية ، قبل أن تطيل الشمس الندي ، وانتظرت كل هذا الوقت . . ليقول لنا . . ابن الحرام . . لا علاقة له بالموضوع » . ثم فجأة أطلقت صوتا ممتدا ، انتشر في أنحاء الحارة ، وأخذت تلطم وتلول : « يا خرابي ، يا خرابي ياناس » ، هنا بدأ هاتف يهتف بداخله : « جاء وقتك يا حسين دياب ، حان وقت العمل ، الجماهير في ثورة ، وهي في حاجة اليك ، فاهم لقيادتها ، قل لهم كل الحقيقة ، حدثهم عن الصراع الطبقي ، والتغلغل الرأسمالي ، ودور البروليتاريا ، وما يحدث في البلد الآن ، قل لهم لماذا الفقراء فقراء ، والأغنياء أغنياء ، ولا تنس ان تربط ذلك بالمسألة الوطنية ، وقضية الاحتلال ، ودور الأميركان في المنطقة » .

قرر أن يحدثهم بأشياء أخرى كثيرة ، وفكر أن لغته معهم يجب أن تكون سهلة ، وكلماته بسيطة يفهمها الجميع ، ويمس من خلالها الموضوعات الرئيسية . لكن أم شحثة لم تمهله حتى ينهي تبوله ، ويرتدى قميصه وبنطاله ، ليقول ما عنده ، فلقد قررت

الذهاب الى المديرية والمحافظة ، للتكلم مع الموظفين الكبار في الحكومة ، الذين لا بد أن ينهوا الموضوع ، فالذى حدث لم يكن من المتصور حدوثه أبدا .

ها هو يقرأ اعترافه المثبت فى محضر التحقيق . لقد ذهب معهم الى المديرية بالفعل ، لكنه كان واحدا مثل كل الآخرين ، محض فرد مشارك ، فهم لم تفسح له فى المجال ليتكلم ، وكانت تصيح صارخة ، بين الحين والحين ، ومن خلفها كل الذين كانوا معها « يا خرابى يا عرابى » ، كما انها هى التى بصقت أولا على عساكر « البوليس » ، ولعنت أصحاب المحلات الكبيرة ذات الواجهات الزجاجية اللامعة ، ولم تتوان عن استخدام أصابعها وساعدها برسم اشارات وحركات بذيئة لراكبى السيارات « الملاكى » ، الذين أخرجوا رؤوسهم من نوافذها ، ينظرون بدهشة ، وهى التى كانت تختار الأزقة والحارات ، لتلم الناس وتجمعهم فى طريقها الى المديرية . أما هو فلم يكن الا فردا ، عليه أن يعترف ، محض فرد بسيط يسير وراءها مثلما يسير الآخرون .

- ٦ -

قالت لجارتها الصغيرة، التى رافقتها لتبيع البيضات الثلاثين، التى نفحتها بهم البياضة وأخواتها ، وتشترى لحم الرأس الذى يحبه شحته : « لو تركوا الغلبان هذا النهار ، وكان له نصيب ، فسأعشيه مع شحته ، فهو غريب عن مصر ، أهله فلاحون من طنطا شى لله يا سيدى السيد ... ولكن فى بالك ، هل سيتركونه ؟ »

تنهات الصبية ، المكتوى قلبها بغرام حسين دياب الميؤوس منه ، « يتركونه أو لا يتركونه ، ماذا تستطيع هى أن تفعل ؟ ! لقد حاولت أكثر من مرة أن تلفت نظره ، وتعمدت أن تطلق

شعرها ، وهى تنشر الغسيل على السطح ، ولكنه كن يجلس داخل غرفته لا يرفع بصره عن الكتاب ، حتى عندما غنت بفتح « جميل وأسمر » ، لم يكلف خاطره الالتفات بنظرة واحدة اليها . وهى التى ترتدى القمطة والجلباب » .

لم ترد البنت المشدودة للواجهات الزجاجية ، التى تتكس فيها الفساتين الملونة ، ومساحيق التجميل ، والحلى الزائفة ، لكنها قالت فجأة : « ولماذا تبقيه الحكومة عندها ؟! سيكلفها أكل وشرب ونوم ؟! غدا تتركه لحال سبيله » .

لكن أم شحطة ، باتت لديها قناعة خفية بأن الحكومة لن تتركه لحاله ، طاف برأسها هذا الهاجس ، وهى تتذكر ملاحقة المخبرين له أثناء « الهوجة » ، كانوا يحيطونه من كل جانب ، ويتابعون خطواته ، وهى نفسها قالت له أكثر من مرة : « ارجع أنت يا حسين » ، لكنه لم يرع ، ولم يستمع الى قولها . بصقت على الأرض مغتاظة ، وقالت لحالها : « غريبة والله هذه الحكاية ! » .

- ٧ -

أوشك أن يطلق ضحكة عالية، وهو يتذكر الذهاب للمحافظة، لقد ذهب معها ، وظل الى جانبها لحظة بلحظة ، لكنه يعرف جيدا أن وجوده مثل علمه ، وهذا ما لم يفهموه أبدا فى التحقيق . كان كالبرعم الصغير أمام شجرة عتيقة ، حتى أنه لم يستطع أن يقول شيئا للمحافظ ، عندما خرج ليواجه الجموع المحتشدة ، وفجرت هى كل ما تفجر ، بعدما يثست من كلام الرجل الذى وقف فى شرفة المبنى ، وسط بطانة من الموظفين ، ليقول عبارات لم تعجبها ، فردت عليه باختصار من فتحتى أنفها الضخم : « قال سينظر فى الموضوع ! .. وعودوا لبيوتكم الآن ، أفضل لكم ؟! » وكررت كلماته محاولة تقليد صوته ، هازئة منه ، ومن كرشه ، وعويناته

السوداء لاعنة آباءه وجدوده ، وقررت العودة ، ليس الى البيوت الفقيرة التي أشار اليها المحافظ ، والتي « لا يعرف منظرها ، ولا ما يدور في داخلها » كما قالت ، ولكن الى الشوارع والطرق الفسيحة ، التي أمضت فيها مع الآخرين النهار بطوله ، واليوم التالي ، ففي البداية لوحت ساعدها المتين في حركات مبهمه ، رافضة ، فهمها الجميع ، وبدأت فيها كمن يقص شريط الافتتاح لمشروع ضخيم ، فهجموا ، مداهمين كل الأماكن والمحلات ، التي ما كانوا يحلمون يوما بولوجها قط ، كقطيع وحشي سرت فيه حمى غريبة ، ولم تمض ساعات ، الا وكانت الواجهات الفخمة المتتالية ، وما خلفها ، في خبر كان ، حتى محلات الألعاب الرياضية ، والأدوات الطبية ، والآلات الموسيقية ، باتت عارية كأرض حطت عليها جحافل الجراد في هجوم مفاجيء ولقد شاهدها بأمر عينه ، هو ، حسين دياب ، تخرج من « جروبي سليمان » وهي تعض بأسنانها قطعة « جاتوه » ضخمة وتمسك بيديها قنينة « بلاك اندوايت » موشومة ، حتى أنه كاد ينقلب على ظهره من الضحك ، برغم كل تفاصيل ذلك اليوم العصيب ، عندما رآها ، بجلبابها الأسود وطرحتها المتهدلة على كتفيها ، حاسرة الرأس ، تفتح الزجاجاة ، تعب جرعة كبيرة منها ، وتسارع بافراغها على الأرض ، بعدما اكتشفت أن مذاقها حاد ، وليس حلوا كما ظنت .

حاول أن يركز ذهنه ، ليستكمل قراءة السطور ، متهربا من شريط الحوادث الذي ما انفك يعبر رأسه ، ويطن فيه كزنبور نحل ، حتى يتبين الثغرات ، ومواطن الضعف في استجوابه .
ليتمكن من تقديم دفاع جيد في المحكمة . كان يعتقد أن حادث القسم هو مسمار جحا الذي سيدقونه في قرار الادانة ، برغم نفيه المتكرر لمشاركته فيه ، لقد تمنى في قرارة نفسه ، مرات ومرات ، أن لو كان وقتها هناك ، مشاركا فيه ، فهو من أبرز

الحوادث التي وقعت وأطرافها ، والفكرة الشيطانية التي نبتت في رأس أم شحثة ، لم يكن من الممكن أن تخطر بباله أبدا ، وقد جن جنونه اعجابا بها ، عندما حكمت لأهل الحارة تفاصيلها فيما بعد ، لأول مرة . كان يظن أن الوقت ما يزال مبكرا على مثل تلك الأمور ، والأساليب ، « فهذه الجماهير العزلاء البسيطة » والمطحونة ، التي لا يمكن أن تواجه العصابات المنظمة ، المثلة لمصالح الدولة . المعبرة عن الطبقة المهيمنة ، فهي ما زالت محدودة الوعي ، ولم تنتظم بعد في أشكال ، وأطر سياسية ، تخوض من خلالها فضالات حقيقية . ولكن أم شحثة فعلتها ، فخططت لهجوم مضاد على قسم الشرايبة ، بينما كان يبيت عند زميله حسنى عبد المجيد . واستطاعت أن تفاوض ثابت الحانوتى على نعش قديم ، ملأته مع الأولاد بالطوب والحجارة ، وغطته بملاءة نزعته عن فرشنها البالية . وحمله الرجال ، وساروا به في الدروب مكبرين موحدين : « الله أكبر ، لا اله الا الله » ، والنسوان خلفهم يبكين ، ويلطمئن خدودهن حتى بلغ الموكب باب القسم ، فألقوا باليت المزعوم أرضا . وفتحوا النعش ، ليطيروا وابلا من الحجارة ، على مبنى القسم ومن فيه . كانت مباغته ما بعدها مباغته ، وخدعة ما بعدها خدعة أسفرت عن « بطح » ضابط بنسر ، في رأسه ، وثلة من عساكر القسم ومخبريه . ولقد أقسمت له أم شحثة ، بسرور وانبساط : انها رأت الأمور « شخصيا » يبول على نفسه من الخوف ، وهو يجرى محاولا الاختباء . كما رددت بتلذذ ، لكل الذين وقفوا يسمعون القصة ، ومنهم هو ، حسين دياب ، كيف استطاع المهاجمون جميعا ، أن يفروا قبل أن يفيق رجال القسم من عنف الصدمة ، ويبدأوا بفتح النار ، وقاطعها عباس « الصرماتى » قائلا ، أنها كانت تطير في الدروب والحوارى ، كرخ خرافى ، هاربة بمن معها ، وأضاف أنها جرت جرى العناريت الزرق ، وأقسم أنه لن يصدقها ، بعد تلك الواقعة ، اذا ما اشتكت من آلام قدميها .

ما أذهل حسين دياب ، من وقتها ، وحتى هذه اللحظة ، التي يجلس فيها بغرفة التحقيق هو البساطة الشديدة التي تمت بها العملية ، والنجاح الذي كللت به ، حيث لم تسفر عن خسائر تذكر ، ما عدا فقدان « زنوبة » رزة ابن عباس الصرماتى ، بعد أن انخلعت من قدمه أثناء الهرب ، ولم يتسن له انتعاليها مرة أخرى ، والخوف والرعب اللذين أصابا جميع من فى القسم .
والذى يذهله أكثر ، الآن ، هو اختفاء أم شحطة ليلة كاملة بعد الحوادث ، عرف منها فيما بعد أنها قضتها عند أختها فى قرية بالجيزة ، وعلم عودتها الا بعد تيقنها من هدوء العاصفة ، وهذا ما لم يفطن اليه هو ، فنام مطمئنا فى حجرته ، يقرأ ويفكر ، محاولا تدبر ما حدث ، وما يمكن حدوثه بعد ذلك ، ليجيئوا ويأخذوه بعد ثلاثة أيام من هدوء الأحوال ، بعد أن فتشوا حجرته ، وهى نائمة فى حجرتها ، يسمع شخيرها ، ولم تستفق ، وهى صاحبة النوم الثقيل لكثرة ما تلتهم من فحول البصل ، الا بعد أن أخذوه ، ولقد وصله صراخها ، وعويلها عليه ، عندما كانت السيارة تبتعد عن الحارة ، فى طريقها الى « اللاظوغلى » .

كان قد أتى على سطور التحقيق كلها . فكر قليلا قبل أن يوقع . هم باضافة عبارة « أم شحطة التى فجرت الموضوع » ، لكنه اكتفى بكتابة اسمه ، فقط ، حسين دياب .

بسمة الموت

- ١ -

وقفت فى مكانى متسمة على الرصيف ، والابتسامة الغريبة
على الوجه تتضاءل شيئاً فشيئاً مع حركة القطار المتزايدة ،
الابتسامة التى لم أرها طوال عشر سنوات للحظة .. لا بل لأقل
من المليون من اللحظة ، لئمن لا يحسب بأبسط وحدات الزمن ..
خلت أنى أحلم ، الميئانى والناس والقطارات والتبنة الخضراء
الوحيدة فى أصيصها على الرصيف .. كلها فقدت وجودها المألوف
.. وأحسست بأحاسيس لم أشعر به من قبل ، غير تلك المرة
البعيدة ، التى أجريت لى فيها جراحة اللوزتين .. وأنا أعد الرقم
الرابع بعد حقنة البنج .

رفعت يدي .. تجسست ملامح وجهى .. سألت عابراً أمامى
عن الوقت ، كنت أحاول التشبث بالزمان والمكان .. مرت أمامى
العربة الأخيرة للقطار .. تحولت الابتسامة التى أراها للمرة الأولى
منذ عشر سنوات ، والكف المرفوعة بالتحية الى نقطة صغيرة سوداء
.. تتلاشى .. آه .. لقد رحلت خالتى أم سامية .

- ٢ -

عرفت الخالة أم سامية منذ حوالى عشر سنوات ، سامية
ابنتها وأنا تزاملنا منذ بداية مرحلة الدراسة الإعدادية ، كانت

الأيام تتوالى ، ويزداد معها حبي وتعلقى بها ، وكنت معها - ولا أدري كيف - أشعر بقوة تملؤنى . وباطمئنان نفسى ، ولقد كنت فى البدايه أكرهها ، غاظنى منها ضحكها الدائم .. وسخريتها العارمة من كافة الأشياء ، مرة شبهتني بالارنب بوجود البنات ، غضبت وبكيت بحرقة ، ولكنها سرعان ما اعتذرت لى دون ان تقتنع بذلك ، وهى تسألنى بدهشة : وهل منى هذه الأشياء تدعو للغضب !! ؟ .. وأيضاً البكاء !! ؟ سامية .. دمها خفيف جداً ما أظن انه حبنى فيها دائماً ، كانت جذابة ذات مظهر وقور لاينم عن شخصيتها أبداً ، ولكن عندما تبدأ فى الكلام ويرتفع حاجباها ، ويتمدد أنفها الطويل حتى لتظن انه سيسقط فى فمها ، عندما يحدث ذلك تحول رؤية الأشياء فى عيني وفى عيون جميع من حولها ، انها تحول البشر الى طيور وحيوانات ، وتسبغ على الحيوانات صفات آدمية ، كانت تسخر من الناس ومن نفسها ومن الأشياء دون أن يستطيع أحد مقاومة هزلها فلا يضحك .. ولن أنسى يوم حضرت الى فصلنا ناظرة المدرسة بصحبة المفتشة .. عندما سألتنا عن الأدوية المطبوبة فى صيدلية المدرسة ، تحمست سامية كعادتها وركزت عينيها فى عيني المدرسة ، وأجابت بوقار :

- حبوب منع الحمل

للحظة ساد الصمت ، ولكن سرعان ما اندلعت ضحكات حقيقية بدأت من عند المفتشة والناظرة واستشرت حتى وصلت الى المدرسة التى كانت واقفة فى آخر الفصل .. وخرجت المفتشة يومها وهى تضحك بينما جلست سامية فى هدوء وهى تسعل .

بعد ذلك بأيام ، سحبتنى سامية من يدى بعد انتهاء اليوم الدراسى حتى وصلنا الى أمها فى المطبخ ، كانت واقفة تنظر من النافذة ، بينما يموج مرق فى وعائه فوق الموقد .. استدارت على ضجيج سامية وهى تعلن لها عن حضوري .. مسحتنى بنظرة انتهت فى بؤرة عيني وقالت :

— أهلا يا ابنتى .

لم تزد . . بينما كانت سامية تحدث ضجيجها وراحت تذكرها بكلامها عني وتقول : أتذكرين . . تلك التى كانت تساعدننى بالكتب الخارجية فى العام الماضى . . وغششتنى فى امتحان العربى ، ولولاها لكنت رسسبت ، ألم أكلمك عنها من قبل ؟ . . ألا تتذكرين !! . منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها أمها . . كانت تخلف عندى الدهشة دائما ، ورغم السنوات العشر التى مرت . فما أظننى قد عرفتها أبدا ، هكذا فعلت فى ذلك اليوم — ودائما كانت تفعل — اقتربت منى وأخذتنى فى حضنها ، وانحنت حتى لامست منبت الشعر الفضى فى جبهتها والذى لم أر من شعرها الملفوف فى طرحتها السوداء غيره طوال عشر سنوات . وقبلتنى فى خدى بحب وبكت .

— ٣ —

فى الشتاء . . فى الصيف . . عبر كل الشهور . . كنا نجلس دائما جلستنا الثلاثية هذه على الكنبه الاستامبولى القديمه الموضوعه تحت النافذه عينها مرة على شغل الكيروشيه الذى بيدها ، ومرة على الشارع الهادى الذى قلما يعبره عابر وساميه وأنا فى الناحية الأخرى من الحجرة نجلس بجوار المكتب . . نذاكر دروسنا أو نثرثر ، ساميه تلقى نكات وأنا أضحك . . وهى لا تتحدث أبدا ولا تشاركنا الحديث أو حتى تبتسم لنكات ساميه ، فقط من حين لآخر كانت تباعد بين حديثنا قائلة :

— سأصنع شيئا .

أو تنبهنا :

— استعدوا للأكل .

ما عدا ذلك ، لا أذكرها متكلمة قط ، وما رأيت من شعرها غير المنبت الفضى اللامع يتوسط أعلى الجبهة ، والذي يبسلو من طرحتها السوداء كنجمة مشعة وحيدة في ليلة حالكة .. أذكر مرة بعيدة ذهبت فيها لسامية لتغيبها عن المدرسة يومين ، وعندما دقت الباب فتحت لي هي ، وظالعتني عيناها والدمع يتساقط منهما على يدي التي تعانق يدها وقالت :

– بوسى ولدت امبارح ثلاثة !!

– ٤ –

آه .. نسيت ان احكى لكم عن بوسى .. انها العضو الثالث في أسرة صديقتي سامية .. التقطتها أمها يوما وهي قطيطة صغيرة من الطريق ، عندما كانت عائدة من السوق ، ومن يومها ولبوسى حياتها المستقرة في البيت ، لها طبق طعامها الخاص ، وفراشها ، وعندما تغيب في مواسم الاخصاب من حين لآخر لتلبى مطالب الجسد .. يدب القلق في البيت ، ولو غابت أكثر من ذلك تذهب أم سامية وتسال عنها الجيران ، وكثيرا ما كانت سامية تتندر على عشاقها من القطط الذين يبيتون أياما في الصقيع على سلم البيت يناجون معبودتهم بوسى .

وكانت تجلس على فخذي خالتي أم سامية تحت النافذة ، فتداعبها وتمسح لها على رأسها ، فتحرّك القطة اللعوب بدلال .. أو ترمي لها بكرات الخيط لتلعب بها وتخفيها تحت الكراسي وتعود بها .

وفى احدى المرات .. ذهبت اليهم ، فطالعتنى والقطة على صدرها ، وهى تحتضنها وتربت عليها ، ودموعها تتسابق على خدنها فى امتنان وهى تقول :

- بوسى فيها بركة وفدت سامية ، وقع انا الشاى المغلى ، ولو لم تكن بوسى موجودة بجوارها لوقع عليها وأحرقها ، بوسى فيها بركة .

تأملت فراء القطة المبتل .. فقط كانت تنتفض من البرد وتلحس شعرها فى ضيق من لحقت بجسده أقدار .

- ٥ -

المرّة الوحيدة التى اصطحبت فيها أمى الى بيت أم سامية كانت من سنوات . كانت أم سامية تصنع أشغال الابرّة للناس مقابل نقود تسند بها معاشهم القليل .. يومها أرادت أمى أن تحيك وشاحا ، وكنت سعيدة لأنها ستتعرّف على أم سامية ، وعندما جلسنا سويا على الكنبة ، راحت أمى تحكى لها عنا : أبى واخوتى وأنا ، وهى صامتة تستمع ولا تترك الابرّة والخيط من يدها ، ولا تكف عن النظر الى الشارع بين الحين والحين كعادتها ، وعندما حكّت أمى عن موت أبى المفاجئ بالسكّنة منذ خمسة وعشرين عاما ، عند ذلك .. اقتربت الخطوط الدقيقة بين حاجبيها وتلاصقت ، وتذبذبت شفّتها الرقيقتان فى حركات سريعة متلاحقة .. واحتقنت أرنبّة الأنف الذى يشبه أنف سامية تماما .. وسقطت دموع .. دموع .

- ٦ -

منذ عرفت بيت سامية ، لا اذكر انه قد مر يوم عيد دون ان
أزورهم ، فى الصيف أو الشتاء .. بعد العصر دائما ، كنت ارتدى
ثوبى الجديد وأحمل صندوق الكعك الصغير ، وفى الطريق أشتري
قطعة شيكولاته لسامية و « بمب » لافزعا به ، وأذهب .. وعندما
أرى أمها تجلس تحت النافذة ، أقدم منها وأقول لها كل سنة وانت
طيبة يا خالتي .. كانت ترد المعايدة ، وهى تأخذنى فى حضنها .
وتشير الى ثوبى الجديد بالاعجاب ، وتقبلنى فى فمى .. ولازلت
أذكر مذاق ملح دموعها على شفتى .

- ٧ -

لا أنتظر حتى أصعد درجات السلم .. ازعق بمجرد دخولى
الى فناء المنزل الصغير .. سامية نجحت .. سامية نجحت .. هذه
المررة أدفع الباب الموارب بلا استئذان .. أدخل اليها وهى واقفة
مبتلة التيساب أمام الحوض .. أضرب الأرض بقدمى وازعق ..
نجحنا .. نجحنا .. سامية نجحت ، تجفف يديها من الماء والصابون
فى جلبابها بسرعة .. لا تبتسم .. لا تضحك .. لا تتكلم ، الدموع
المتأهبة للفرار تفارق المقلتين ، وتنداح على الخدين مدراة بلا زمام
.. أقول لها فى هدوء .

- مبروك يا خالتي .

- ٨ -

منذ عام تخرجنا أنا وسامية .

هى مدرسة بالريف . . . تنهب الى القرية ، وتعود الى بيتها مرتين فى الاسبوع ، وأنا موظفة بالحكومة ، أحمل نفسى مرة كل صباح الى الطرف الآخر من المدينة وأعود عند الظهر ، ولا يمر يوم دون ان أذهب لخالتى أم سامية ، اطل عليها وأسألها ان كانت تريد شيئاً ، وأحكى لها عما حدث لى طوال اليوم ، وعن مشاكل العمل ، وأحياناً كنت أستأذن أمى فى المبيت معها فى الأيام التى كانت تغيب فيها سامية بمدرستها البعيدة ، ونظل ساهرتين ، لا تكف ، هى ، عن الامساك بالابرة ، بينما أنا أقرأ كتاباً أو مجلة وأحكى لها عن العرسان الذين يطلبون يدى ، وعن ابن خالتى الذى رأى سامية مرة عندنا ويريد أن يتزوجها ، وهى لا توافق لأن شكله كحمار عربية الزبالة . . . كنت أقول لها ذلك وأضحك وأنا أتخيل منظره ، أما هى فتتنظر لى بين الحين والحين وتتأملنى والدموع تبلل عينيها ، وتدعو لنا بالتوفيق .

- ٩ -

أظن انى لا أستطيع ان أحكى التفاصيل الآن ، وهى لا تهم بعد ذلك ؟ ولا أدرى أسف أم ارتاح لنسيانها ؟ .

فقط . . . الذى حدث . . . هو أن آخر مرة رأيت فيها سامية كانت عندنا فى البيت . . . جاءت لتعود أمى المريضة ، وكنت ذاهبة لشراء بعض الأشياء فخرجت وتركتها مع أمى ، ومن ساعتها . . . لم أرها . . . والى الأبد .

باختصار . . . ماتت سامية فى حادث مفاجئ على الطريق الزراعى وهى عائدة الى أمها من المدرسة .

أتعرفون جنازة الغربان ؟ سأحكي لكم عنها ، عندما يموت غراب .. تتجمع الغربان فجأة وتقيم مأتما وجنازة لدفنه ، ومثلما لا يدرى أحد .. من أين تأتي تلك الاعداد الكبيرة منها ، وكيف تتجمع على وجه السرعة تجمع أقارب ساميه وأهلها ، حتى ملأوا المنزل عن آخره .

طوال علاقتي بسامية لم أر لها أقارب على الإطلاق ، ولا حتى في الأعياد ، ولم تكن تحدثني الا عن أمها ولا أظنها أثارت ذكرى والدها المتوفى مرة أمامي ، وعندما عرفت خبر وفاتها وذهبت الى منزلها ، نصف سائرة ونصف طائرة ، بين مصدقة ومكذبة ، في حالة تعقل ، وأيضا جنون ، كنت حتى تلك اللحظة .. حتى لحظة رؤيتي لخالتي أم سامية ، كمن ألقى به من برج مرتفع ولم يرتطم بالأرض بعد ، وعندما رأيته .. آه عندما رأيته .. جالسة على الكنية تحت النافذة بلا ابرة في يدها ولا خيط ، بلا دموع على خديها .. صرخت .. زعقت .. خبطت على رأسى ، ولطمت خدى ، ودفنت وجهى فى حاشية ثوبها ورحت أعضها ، شعرت بأن طاقة الألم الهائلة بداخل تمنع الهواء عن صدرى .. لم أقو على الكلام وقد تخشب لسانى فى موضعه ، وكنت أرفع رأسى بين الحين والحين ، أنظر اليها ، عليها تقول أو تفعل شيئا ، لكنها كانت كما هى بالنظرات الأولى نفسها التى طالعتنى بها ، يوم رأيته لأول مرة ، والتى تمسحنى حتى تستقر فى المقلتين ، ومنبت الشعر الفضى عند الجبهة وسط لجة السواد الكبيرة . فقط لمحت كفها متصلب متشبعة بمسند الكنية القديم ، وسرسوبا من الماء الدافئ يتسرب من تحت جلبابها الأسود على الجزء العارى من ساقها ، ويصب فى جوربها الأسود القصير ، تسمرت على وضعى .. فتحت عيني وفمى عن

آخرها ، وتلاحقت أمامي في سرعة صورتها على الكنب ، والنساء
الغريبات الناثحات من حولها ، والمنضدة المربعة القديمة ، التي
كنا نأكل عليها ثلاثتنا ، مستقرة في الركن ، ورجل لا أعرفه يرتدي
جلبابا طويلا يقف وقد أسند نفسه للباب ، وغبت عن الوجود .

- ١١ -

أن تموت سامية .. هذا ما يشعرني بالخجل والعار !! .

كنت أظن انني التي يجب ان تموت .. شعوري نحوها كان
دائما أنها أفضل مني .. بالمقياس العام الذي يحكم به الناس بيننا ،
كنت أفوز أنا الأجل والأغنى .. وكثيرا ما كانت أمي تدهش من
تعلقى بها .. كنت أرى كل الأشياء عندها أفضل .. حتى بيتهم
الصغير الفقير .. وحتى الملابس التي كنا نشتريها سويا .. بالذوق
والألوان نفسها .. كنت أراها عليها أجمل وأرق .

وكنتم أشعر أنها ظريفة وجذابة ، وأحاول أن أقلد أسلوبها
في الكلام ، وحركات يديها وتعبيرات وجهها ، حتى أن أخي الأكبر
لفت نظري الى ذلك .

وعندما كنا نخرج سويا ، رغم اختلاف الشبه الواضح بيننا
في الملامح والتكوين الجسدي ، كان كثير من الناس يظنون اننا
شقيقتان .

بصراحة .. بعد ذلك اليوم .. يوم موتها .. لم أحتمل
مواجهة خالتي أم سامية .. كنت أعتبر نفسي مسؤولة أمامها عن
موت ابنتها وانني قد خدعتها .. كان ذلك شعوري الدائم الذي
تكون في داخلي منذ أن عرفتها .. أجل فعندما كانت تحصل على

درجات ضعيفة فى المدرسة أو تفسد شيئاً فى بيتها أو تتأخر فى المساء .. كنت أشعر بالخجل والعار عندما أواجه أمها ، ولقد طفع هذا الشعور عندى الآن الى الحد الذى يجعلنى لا أقوى على مواجهتها على الإطلاق .. ولم أذهب اليها منذ ذلك اليوم ولا مرة واحدة .

- ١٢ -

مر شهر على وفاة سامية .. وأنا لم أر أمها بعد ذلك مرة واحدة . اليوم أيقظتنى أمى مبكرة قبل موعدى .. وبين الصبح والخم سمعتها تقول لى بأن أم سامية تنتظر فى الخارج ، وهى ترغب فى توديعى قبل سفرها .

كمن ألقى عليه برميل من الماء البارد .. انتفضت حافية القدمين اعدو خارجة اليها غير مصدقة .

القيت بنفسى عليها .. أخذتنى فى أحضانها وهى تكفكف دموعى بكفها دون ان يرتعش هدب واحد من أهدائها .

- ١٣ -

أصريت على أن أذهب معها الى المعطة . استقر الرأى أن تعود الى بلدتها ، وسط أقاربها ، لتموت فيها ، باعت أثاثها وأوصت جيرانها خيراً ببوسى .

سارت بجائبي تحمل على جبينها منبت الشعر الفضى . وفى يدها حقيبة جلدية صغيرة ، كل ما أخذته معها الى البلد . لم نتحدث طوال الطريق - لم أحاول أنا ولم تحاول هى ، رغم الزحام .

والضجيج لم يكن منا غير الصمت ، ومن حين لآخر كانت ترفع يدها وتحكم وضع طرحتها على رأسها ، وتعود لتنظر الى الطريق من نافذة السيارة التى حملتنا الى المحطة . . كما كانت تنظر من جلستها على الكنبه عبر النافذة . . وعندما توقفت السيارة فى فناء المحطة الخارجى . . أمسكت بيدي فجأة قبل ان تنزل وظلت قابضة عليها فترة من الزمن . . تصلبت لم أقو على الحركة ولم تسعفنى الدموع .

وعندما أطل وجه رجل من الخارج الى داخل العربة سائلا السائق أن يحمله . . نزلنا وبخطى متثاقلة ارتفعت أقدامنا وحطت على الأرض . . كنا فى جنازة . . جنازة خاصة جدا .

- ١٤ -

جلست معها قليلا فى عربة القطار ، حتى يحين رحيله ، لم تتلاق نظراتنا أبدا حلقت نظراتنا صوب الأفق . . حيث لا شئ ، فكرت أن أقول لها شيئا ، ولكنى لم أجد ما يقال .

أوشك القطار على السفر ، نزلت ووقفت على الرصيف قرب مكانها ، أسفل النافذة . بدأ القطار يتحرك أحكمت وضع طرحتها حول رأسها ، ولم يظهر منها الا المنبت الفضى نفسه .

وقفت فى مكانى . . أرغب بالبكاء . . بالصراخ . . بأن أجمع العابرين واستوقفهم ، وأحتمى بهم . . بأن أجرى خلف القطار ، وأمنعها من الذهاب ، ولكن فجأة . . أقول فجأة ، باغتتنى ، ورفعت يدها بالتحية ، وانفرجت شفاتها عن ابتسامة غريبة ، بدلت ملامحها ، وأنا التى أحفظها ، كلامح أمى طوال عشر سنوات .

خلت انها ليست المرأة التي أعرفها .. خالتي أم سامية . كانت
حركة القطار المتزايدة تشد ساقي الى الأرض ، حاولت التشبث
بالمكان وباللحظة ، بالناس العابرين ، بالمحطة ، وبالساعة
الضخمة ، المعلقة في صدر الحائط الكبير . لكنى كنت انهار ،
ويلفنى شعور لا أنساه .. الشعور الذي أخذ يسرقنى شيئاً فشيئاً ،
عندما رحت أعد الرقم الرابع ، بعد حقنة البنج ، يوم أجريت جراحة
اللوزتين .

أصل الحكاية منه

قال التاجر - يقول منصور « البوهيجي » دوما لزيائنه مفتنحا
الحكاية : « ودين النبي يا صاحبي انك خرفت وعقلك طار » ، بعد
ان سمع حلاية سندس من صاحبه انهران الذي قال انها طيرت النوم
من عينيه حتى لحظة صياح الديك في الفجر ، وانبسط وتكيف
من الكلام ، وطقق رقبتة وهو ينظر الى لاقول شيئا ، لكنى ناولته
الجزمة ، وأنا ساكت ، بعدما لمعتها ، ولما هم بالوقوف ، بعد أن
لبسها ، وكان غلب الفران ، وقتها ، عشرين طاولة ، فكان
فرحا جدا ، خبط على كتف صاحبه ، الذي كان متضايقا من
الغلب ، وعدم تصديق العالم لكلامه ، بأن ما قاله حصل بحق
وحقيق ، وأنه لا يكذب ، ولا يفترى على خلق الله ، ثم أنه حلف
مرة ثانية بتربة أبيه الطاهرة ، وثالثة بالطلاق ثلاثة من أم عياله ،
أن ما قاله هو الصديق بعينه ، وأنه سمع من سندس بحملة أذنه
التي أمسكها عندئذ ، ما قاله لترو واللحظة ، كلمة ، كلمة ، ودون
زيادة أو نقصان ، فمن أحب فليصدق ، ومن لم يحب فهو حر ،
أو يروح في ستين داهية ، ثم طلب واحد قهوة سادة ليشربها ويريح
نافوخه من الوجع .

عند ذلك الحد سهم التاجر قليلا ، ووقف في مطرحه يتفكر في
كلام صاحبه ، وهو ينظر له باستغراب شديد ، وبقي على حساله
هذا مدة من الوقت ، لعبت أصابعه بشاربه ، وواحد منها تكش

أنفه ، ثم تنهد تنهيدة عظيمة ، بعد ان نظر الى ناحيتى دون ان يعلق
على الكلام بحرف واحد ، أو يعرف الصدق من الكذب . . . ومشى .

منصور البوهيجى ، الذى يحب كثيرا مثل هذا النوع من
الحكايات ، وكذا كثرة الكلام ، والتقليب فى سيرة الخلق ، مال
لتصديق رواية الفران ، خصوصا لأنه كثيرا ما شاف امرأة النجار ،
تجلس فى دكان القماش كل يوم والثانى ، تأخذ وتعطى فى الكلام
مع صاحبه وهى تسبل جفניה ، وترفع ذراعيها ، لتزيح الشعر
الناعم المتساقط على جبينها ، حتى يبان لحم ابطها ، مما يجعل
منصورا نفسه ترتخي أعصابه ، وتسبب مفاصله ، الى درجة ان تقع
من يده فرشاة التلميع غصبا عنه ، بينما صاحب الدكان ، يطلب لها
المشاريب الباردة والساخنة من المقهى ، ولا يرفع عينيه عنها ، لذلك
فالحكاية شعشت فى دماغه وذهب لما الدنيا عتمت فى مساء اليوم
ذاته للخرابة ليتقصى الخبر بنفسه ، اما التاجر فقد ألهمته البضاعة
والفلوس ، وأمور الدنيا ، بعض الوقت عن حكاية الفران العجيبة .

ذلك ما كان من أمره ، حتى لحظة مروره على الخرابه ، بعد
ثلاثة أيام بلياليها من حديث الفران له على المقهى ، الذى منعه من
مفاتحته . برغبته فى الدخول مرة ثانية على بنت بنوت ، كما منعه
من ذلك حضور منصور البوهيجى ، الذى جعل وقت الكلام غير
وقته . التاجر فى الخرابه ، آنذاك ، كان يفكر فى الموضوع نفسه ،
تأخذه وتجيبه الأفكار ، فهو يرغب فى الكف عن الهلس ، والمشى
فى البطال والحرام ، وبعثرة الفلوس ، كل ليلة والثانية على بنات
الحظ ، ثم ان بنت البنوت التى ينوى الدخول عليها ، ربما ولدت له
الولد الذى تتمناه نفسه ، ليحفظ له اسمه ، على ظهر الدنيا ، ويبقى
فيها بعضا من رائحته بين الناس ، لكنه قبل كل شئ ، سيفاتح
امراته أم البنات بالأمر ، حيث لن تكون لها حجة فى الخط من عزمه ،

لأنه ستر بناتها ، وزوجهن جميعا ، كما صبر عليها السنين الطوال دون أن ترزق بالبنين ، الذين يخاف أن يودع الدنيا دون أن تتكحل عيناه برؤية واحد منهم يخرج من صلبه . التاجر ، لما حصره البول ، فى الخرابة ، وكان قد فرغ من قلب الأمر على كل وجه ، واستقر مع نفسه على ما وصل اليه ، فك أزرار سرواله ، ليفك ضيقته ، وسار الى عشة سندس ، ليتدارى بحائطها ويقضى حاجته ، عند ذلك تذكر كلام الفران عنها ، فابتسم لأنه سمع شخيرها يختلط بصوت رشاش بوله المندفع الى الأرض ، ولما استرخت عضلاته المتوترة ، تفل راضيا ، وسب سافل سافلين جدود الفران . الذى لا يكف عن الفشر والكذب ، وابتداع الخرافات ، ونوى أن يفضحه أمام الخلق ، عندما يلاقيه ، فى المقهى ، عند الصباح ، ان كان له عمر باذن الله .

كانت الدنيا شتاء ، والرياح تطيح بفروع النخلة الوحيدة الباقية فى الخرابة ، هكذا كان يحكى البوهيجى ، قبل أن يسترسى فيما كان من أمر سندس مع التاجر والفران والموظف والنجار وبقية أهل الحارة ، وما جرى من نوادر عجيبة بعد ذلك ، وهى النوادر التى كان يحلو له حكايتها لزبائنه ، كلما سمح له الوقت بذلك فيقول : كاد البول ان يسبب بين فخذ التاجر مرة ثانية لما سمع شخيرها يتلون ، فجأة ، بغمغمة غريبة ، سرعان ما اكتشف أنها كلام بنى آدم ، « كلام مثلما كلامى وكلامك يا سيد » يقول - البوهيجى مؤكدا - التاجر احتار وخاف وتمنى لو استطاع لأطلق ساقيه للريح ، لكن قلبه كان قد طب منه عند رجله ، فتسمر فى مكانه ، حتى سمع كلام سندس كله ، ومن ساعتها شاب شعر رأسه ، وبقي كتانة بيضاء .

ثم انه جرجر نفسه بالعافية ، وسار سير من مسه مس ،
لا يعرف أوله من آخره ، ولا رأسه من رجليه ، حتى وصل عمارته ،
التي يسكن فيها .

مسور البوهيجى لم يحك - لأنه لم يعرف أبدا - ان زوجة
التاجر أم البنات ، لاحظت صباح هذه الليلة ، والليالى التالية لها ،
أن رجلها صار عابسا ، مهموما ، لا يلاطفها ، أو يقرصها فى فخذاها
كعادته ، عندما تنحنى وتضع المركوب فى قدميه ، قبل نزوله من
السريـر عند كل صباح ، كما أنه لم يعد يمس طعامه الا مس خفيفا ،
وقبل أن تحكى ذلك لجاراتها ، كانت قد طلبت من ربها الستر ،
وجعل العواقب سليمة ، لأنها لما سألت زوجها عن سبب كربيته ،
تنهد وفرك يديه ببعضهما دون ان يجيبها ، الجواب الشافى
لحيرتها ، وهى التى كانت تتوجس المكروب بسبب ان جفن عينها
ظل يرف ، قبل ذلك بأيام ، رفات كثيرة جعلتها تقول لروحها فى
قلق اللهم اجعله خيرا يارب .

« العواقب ، فى الحارة ، لم تأت ، بعد ذلك ، سليمة أبدا » ،
هكذا كان يحكى البوهيجى للزبائن ، بينما يمرر فرشاته تمريرات
سريعة على جزمهم ، لتلمع وتبرق كالبلور . « فالتاجر رغم أنه
دفن سره فى قلبه وكفأ على الخبر ماعونا ، الا أن صدره كان قد
توغر ضد أخيه الخائن الذى يشاركه تجارته ويظن أنه ابن أمه
وأبيه ، الذى يعيش معه على الحلوة والمر ، ويأتمنه على ماله
وتجارته ، لذلك قام التاجر بطرد كاتب الحسابات الذى عمل عنده
عشر سنين قبل ذلك ، وأمسك حساباته بنفسه ، لأنه وكما يقول
المثل - يقول البوهيجى بجد - لا يخاف على المال الا أصحابه ،
والتاجر ، من ساعتها ، فتح عينيه ، عن آخرهما ، على كل قرش ،
داخل وخارج ، من تجارته الكبيرة فى السوق » .

« أما الولد كفراوى - يقول منصور البوهيجى أيضا - فقد كان يعمل صبيا عند الفران ، ويبيت ولا مؤاخذه - مع كلبه الأسود ، كل ليلة ، فى حجرة الكناسة ، التى يجمعها ، بأمر الفران ، لبيعها ، حيث تعجتها نسوان الحارة ، لتطعم بها الفراخ والحيوان . الولد كفراوى ، بكى وولول كالحرير ، كما لطم وشق هدومه ، بعد أن شاف كلبه المحبوب مرميا ، رمية الموت ، بجانب مخزن الكناسة ، وقد نيفن كفراوى أن موت الكلب كانت بفعل فاعل ، سمه قصدا ، منصور البوهيجى كان يضحك كثيرا عند هذا الحد من الحكاية ، ويسحب نفسا طويلا من سيجارته ، ينفضه بارتياح ، بينما يغمز بعينه للزبون ، ويضيف مقسما ، « والله يا حصرة ، سمعتها بحلمة أذنى ، من سندس ، وهى تقولها ، سمعتها ، بالكلمة ، والحرف الواحد . كفراوى كان يفعل المفعول مع الكلب الأسود ، الذى كان يسميه جميل ، وأنا صدقت ، لأنى كنت أشوفه ، كثيرا ما ، يحرم نفسه ، من الحلوة والمرة ، وهو الفقير ، ويشترى للبهيمة اللحم الضانى ، بالشئ الفلانى . والا ، لماذا بالله عليك يحرم روحه ، ويعطى للكلب . لا بد أن فى الأمر « أن » ، اعقلها معى يا سيد » .

ثم يؤكد منصور ، بعد ذلك ، أن كفراوى ، الذى منعه التاجر من احضار الخبز لامراته . عند كل صباح ، « لأنه نجس نجاسة الكلاب ذاتها ، ومنحرف » ، وكاد أن يجن فعلا ، بعدما صار مكتئبا ، حزينا ، طوال الوقت ، كمن مات له ابن أو أخ أو أب أو عزيز لديه ، بل وأصبح لا يتكلم مع الناس ، الا ، فى الشديد القوى ، عندما يلزم الأمر .

« ثم أن الحارة كلبا على بعضها أحوالها تغيرت - يقول منصور - والجفاء بنى أهلها أخذ فى الزيادة ، والناس حصلت بيتها

الوحشية ، ولم يعودوا يأتُمنون بعضهم البعض ، أو يتحدّثون فيما بينهم كما يجب ان يكون حديث الصاحب للصاحب ، حتى النسوان ٠٠ احترزن في الكلام ، بسبب الخوف من الرط والعجن وتقليب الحكايات ، والسبب ، في كل ذلك ، حكايات سندس العجيبه ، فجميع لانوا يتسللون ، الى الخرابه سرا ، عندما يأتي الليل ، ويتسمعون كلامها ، ويقال ان حسين موظف الصحة قرر الرحيل ، الى مكان آخر ، لأنه اكتشف ان القهوجى كان مختبئا . فى الناحية الثانية ، بجوار العتسه ، عندما حكّت سندس عن بيعه لحقن الكيف ، التى يسرقها من مخازن الحكومة ، ويحقن بها الخلق ، مقابل معلوم من الفلوس ، وأن امرأة التاجر ، نفسها ، كانت تشك ، منذ زمن ، فى أسباب تغير أحوال زوجة الموظف وعياله ، الذين بدت عليهم امارات النعية فجأة ، وصار عندهم التلفزيون الملون ، والصالون المذهب ، بينما راتبه ، شهريا ، لا يزيد عن مصروف التاجر كل يوم على المشاريب والدخان .

أما بنت الموظف نفسها ، فسندس قالت عنها انها تغار من زوجة النجار ، وتحقد عليها ، لأن البنت قبيحة ولا تعجب الجدعان ، حتى لو صبغت شعرها بالأصفر ، ولبست القصير المغرى كامرأة النجار ، لأنه شتان بين اللحم الأبيض ، واللحم الأسود ، والعود الطرى ، والبدن الجاف ، ثم انها تفتعل الأدب والاحتشام ، وتكثر الحديث عن العفاف ، وطهارة الذيل ، وربما لو أشار اليها كلب ، فى الطريق ، لتبعته من فورها وعلى رؤوس الأشهاد .

أما ما يقوله منصور البوهيجى من حكايات سندس ، قبل أن يختتم هذه الحكايات ، بحكاية ما كان من أمر النجار مع امراته ، فهو ما رآه بأم عينه ، وما سمعه بأذنيه الاثنتين ، من حكايات تخص سندس نفسها .

سندس تشم الرائحة لكنها لا تبالى

« أحوال سندس تغيرت ، أقول ذلك لأنى كنت أعرفها ، وأشاهدها كثيرا ، وهى تشتري الحاجات ، من الدكاكين ، أو تشير للتاجر ، فى المقهى بأنه مطلوب من جماعته ، لأمر هام ، فى البيت ، كانت تتفاهم بالإشارة ، وكنت أمارحها ، وأهددها بأن أمسح بفرشاتي على مركوبها الوسخ ، الذى لا تقل وساخته عن وساخة قدميها ، فتخبطنى - يمسيتها بالخير ان كانت حية - وتشير بأصابعها فى اتجاهى ، اشارات بذينة أضحك منها : لعلمى أنها اغتاظت وفار دما . »

صحيح أنها استمرت فى الحصول على لقماتها ، كالعادة ، من بيت التاجر ، نظير تنظيفه والخدمة فيه ، كل يوم ، كما أن الفران لم يمنع عنها الأرغفة الست ، التى كان يجريها عليها ، كل يوم ، وظلت على عادة استحمامها ، كل مدة ، فى بيت الأدب بالمقهى ، عندما ينصرف الزبائن ، ويوشك القهوجى على الذهاب الى بيته ، لكنها أصبحت حديث الحارة والحوارى المجاورة طوال الوقت ، وقد حاول الكثيرون الكلام معها ، لكنها ظلت ، كما هى ، ساكنة ، بكما لا ترد ، ورغم أنها شعرت أن أحوال العالم ، حولها ، تغيرت ، إلا أنها لم تبال ، ولم تغير سنة حياتها فى شىء ، ومنذ أن وقعت عليها عيون الناس ، فى الحارة منذ مدة ، يقول بعضهم انها تزيد على الخمسين سنة ، التاجر والفران والموظف كانوا منشغلين ، أكثر من غيرهم ، بأمر سندس . التاجر الحويط قالوا ان حياته كانت مليئة بأسرار كثيرة وخطيرة ، كانت تعرفها سندس ، لذلك قرر تسقيف منور العمارة ، ليعد فيه منامة لها ، لأنه عزم أن يأتى بها ، من العشة ، ليقفل عليها كل ليلة عندما تنام ، فلا يتسلل لموضعها بنى آدم ليتصنت . التاجر ، فى الحقيقة - ولا يعلم

ما بالنفوس الا الجبار - كان يشتهي موت سندهس ، وكان يستطيع ذلك ، لو بيت العزم ، لكنه كان يعتقد بالجان ، ويفكر أنها ربما كانت توأخي واحدا منهم ، كما أن حكيه المنور انتهت ، لأن عامل المجارى ، الذى يسكن أسفل العمارة ، والذى كان يسد حلق التاجر ، المتمنى تركه للشقة الصغيرة ، التى يستأجرها منه ، بين يوم وليلة ، كان يسد حلقه بالايجار ، عند أول كل شهر ، لذلك فقد رفض تسقيف المنور ، وهدد بابلاغ البلدية ، لو تم ذلك ، لأن السقف سيكون غير شرعى وسيسد عن شقته النور والهواء ، وكذا باقى شقق الدور السفلى ، لذلك فكر التاجر ، عوضا عن ذلك ، فى بناء أرض الخرابة ، التى يمتلكها ، والتى كانت فى الأصل موضع سراى كبيرة ، يملكها صايغ أرمنى ، رحل مع امرأة ، تاركا سندهس ، التى كانت تعيش معها ، وتخدمها ، قبل أن تخدم سكان العمارة وبيت التاجر . الأرمنى - يقول منصور البوهيجى مضيفا - اتفق مع التاجر ، عند البيع ، على ان يترك لسندهس عشيتها ، لتعيش فيها ، وقام بخصم ثمنها من ثمن السراى ، وقد نفذ التاجر الاتفاق فعلا ، ليس لأجل سندهس المسكينة ، ولكن ، لأنه كان يعرف ان عشة سندهس ستدخل ضمن حدود الشارع الجديد ، الذى تنوى الحكومة ، تنظيمه ، وأنه لن يخسر شيئا اذا ما ترك العشة على حالها . التاجر نوى بناء الخرابة ، ليجبر سندهس على الاقامة فى عمارته ، لكن لما كان العامل الوسخ - كما يقول التاجر - يقف عقبة فى سبيل ذلك ، فقد استقر أمره على أن يخلي لها ، حجرة الخزين ، التى ترص فيها امرأته قدور السمن ، وأشولة السكر والأرز ، لتعيش فيها ، وليعلم جميع من فى الحارة ، بعد ذلك ، أن التاجر صاحب حسنة ، ويده ممدودة بالخير دائما .

الموظف ، المشغول بأمر سندهس ، فضل الرحيل ، أما النجار ، الذى تظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن حكايات سندهس - رغم أن سعيه

انفران الدى لا تبلى نى فمه فوله نشر الحكاية على قدر استطاعته -
فقد تابع الأمر فى الخفاء ، على نحو لا يلاحظه أحد من أهل الحارة ،
وسمع ان سندس كانت جارية ورثها الأرمنى ، عن أمه ، منذ كانت
طفلة ، وقال آخرون انها ، فى الحقيقة ، بنت حرام ، وجدها الأرمنى
على باب بستان الدار أيام كان للدور بسبّاتين وذلك عندما كان
يتمشى فيه ساعة عصارى .

سندس ، ظلت تعود الى عشتها ، عند غروب كل شمس ،
وهى العشة التى لا تزيد مساحتها عن مترين فى متر ، وتمد نفسها
على فرشة قديمة ، تبقت عندها من أيام الأرمنى ، مع بعض الأشياء
الآخري ، التى كان من بينها علب صفيح فارغة ، وقطع فخار
مكسورة وتماثيل غريبة الأشكال ، كما كانت هناك هدموم قديمة
تأخذها سندس من أهالى الحارة ، وكانت هناك لمبة جاز وناسية
تسهلها المسكينة بمجرد دخولها العشة فى المساء ، وتأخذ فى
النظر اليها حتى تروح فى النوم ، « وهذا الكلام ليس من عندى
يا سيد » يقول البوهيجى دائما لزبونه - « لكنى رأيته بعينى
عندما راقبتها عدة مرات » « وأقول لك صادقاً اننى لم أكن أعرف
فيم تفكر سندس على وجه التحديد ، حينما كانت ترقد فى فرشتها ،
محملة فى الوناسة ، حتى يغالبها النعاس ، فتنام ، كما أقول أيضا
أن أحدا ، من أهل الحارة ، لم يكن ليعرف أيضا ، فيم تفكر هذه
المرأة ، طوال النهار ، لكنها لم تكن معتوهة أبدا ، رغم أن خلقتها
ربما أوحى بذلك ، فهى كانت تشتغل شغلها كله بشطارة ، وكان
الجميع يتفاهمون معها بالإشارة ، لأنها كانت لا تسمع أيضا ،
والرجال لم يفكروا فى الاقتراب منها ، أبدا ، لأنهم لم يروها
امراة قط ، بسبب شكلها الغريب قليلا ، ثم ان معظمهم ، عندما
شبهوا فى الحارة ، وجدوا سندس كبيرة ، بالنسبة لهم ، أما النسوان
فكن يتنذرن على شكلها ، وعندما يشخرون من أحداهن يشبهونها

بسندس ، اما زوجة تاجر القماش ، التي كان نصيبها من الجمال قليلا ، فكانت تنهر النسوة ، عند ذلك الكلام ، وتقول لهن : انها خلقة ربنا ، ولا يصح ما تقلنه أبدا .

يوم الدينونة في الحارة

« قلنا ان الجفاء ، بين أهل الحارة ، قد زاد ، والرجال لم يعد يطبق بعضهم بعضا ، ورغم أن كلب نفاوى قتل ، والموظف ترك الحارة ، ورحل ، مع أهله ، والتاجر فصل تجارته ، فى النهاية ، عن تجارة أخيه ، الا ان الحكاية لم تقف عند هذا الحد ، ففى يوم من الأيام وجدت امرأة النجار مقتولة ، وقيل ان زوجها قتلها لما يتفن من أمرها مع تاجر القماش ، وقبلها كانت الحكومة قد أوقفت فرن الفران ، وشمعت بابه بالشمع الأحمر ، بسبب تسريبه دقيق التموين ، خارج الفرن ، اما سندس نفسها ، صاحبة الحكايات العجيبة والتي حكى حكاية التاجر مع أخيه ، وزوجة النجار مع تاجر القماش ، وبيع الموظف للمسروق الممنوع ، وصبى الفران مع كلبه الأسود ، وحكايات أخرى كثيرة ، ربما سمحت الأيام بقصتها - يقول البوهيجى - فقد اختفت من عشتها فجأة ، دون ان يعثر أحد على أثر لها ، البعض قال ان التاجر قتلها ، آخسرون قالوا انها طفشت ، بعد حادثة النجار ، بعض الناس نبشوا عشتها ، نسوان الحارة أخذن بعض قطع الفخار ، التي كانت نكومها ، ليستخدمنها فى أمور السحر والجان ، ورجال حفروا فى أرض العشية سرا ، ظنا منهم انه لا بد وان يكون بها كنز مخبوء ، وحتى هذه الساعة لا يعرف أحد شيئا عن سندس ، التي تركت كل حاجة ، من حاجياتها ، بمطرحها - يقول منصور البوهيجى ، الذى يثبت نظراته على وجه زبونه المستمع فترة ويضيف بعد صمت - ما عدا لمبة الجاز السهارة ، التي اختفت أيضا .

صنعة لطافة

فاض الكيل بالنفطة ولم تعد تحتل الحياة مع الخط ،
لأنها تمضى جل وقتها لاهثة تدور وراء طالعة نازلة وكأنها فى
دوامة لا تنتهى ، فهو يصير حروفا فى بعض الأحيان ، ويكون عليها
أن تلبى أوامره سريعا ، بأن تقبع تحته تارة ، أو تستقر فوقه تارة
أخرى ، أما عندما يتدور أو يتثلث أو يتربع ، أو يتخذ أيا من
الأشكال الأخرى فان النقطة تبلغ ذروة غيظها وغضبها منه ، اذ انه
يكون متجاهلا لها تماما ، ولا يعيرها اهتماما وكأنها غير موجودة
بالمرة فى هذه الدنيا .

عند الغروب ذات يوم ، وبينما كانت الشمس تودع النهار
على أمل اللقاء فى اليوم التالى ، كانت النقطة واقعة أسفل الخط
وقد تشكل على هيئة علامة استفهام فداخلها شعور مريع بأنها
موشكة على الانهيار ، كما لو أنها صخرة كبيرة ستقع وتنفصل عن
جبل شاهق ، لذلك قررت أن تضع حدا لعذاباتها وتحسم ما جال
برأسها طويلا فقالت للخط مباشرة دون موارد وفى صرامة وحزم :

ـ لقد تعبت بسببك بما يكفى ، وسئمت الحياة معك ، لذلك
سأفارقك ولن أعيش معك بعد اليوم . سأرتحل بعيدا ، ولن أكون
لك . سأصير حرة أرتع كما أشاء فى فضاء الصفحات . سأحيا من
الآن فصاعدا لذاتى وأولياها ما تستحقه من العناية والاهتمام ،

فأنا فريدة ، خاصة ، مميزة ، لامثيل لى فى الكون ، ساحرة ،
فاتنة ، صغيرة ، كبيرة ، متكئة ، مصمتة ، مغلقة ، غامضة ،
مبهمة ، مدملة ، مثيرة ، رزينة ، مستقرة ، ساكنة ، متحفظة ،
ملمومة ، مضمومة ، ولن أسمع لأى كان أن يستغلنى ويحط من
قدرى ، أو يعاملنى باستعلاء واستخفاف • أية فرادة هى أنا ،
وأية عظمة مستحيلة فى الخلق أكون •

نظر الخط الى النقطة بدهشة ، وهو يتأملها جيدا ، فلطالما
تبرمت وتذمرت ، لكن فى كلامها ، هذه المرة ، نعمة جديدة غريبة ،
لم يسمعها منها من قبل أبدا ، لذلك فكر مستغربا وهو يسأل
نفسه :

— الآن •• تحدث عن الحرية ؟! اتفكر فى ذاتها بعد كل
السنوات ؟! لو قالت ذلك منذ زمن طويل لقلت : أجل ، انها
متأثرة بهوجة الأفكار المنتشرة فى كل مكان ، ولكن الآن •• كلام
عن الحرية ؟! هل تظن هذه العبيطة أن العالم مازال يعيش زمن
حركات التحرر ، ويرفع شعارات الاستقلال ؟! ألم تسمع عن النظام
العالمى الجديد ؟! ألا تعرف أن كلمة الحرية صارت من الكلمات
الشاذة الغريبة الموشكة على الانقراض تقريبا ؟

ابتسم الخط للنقطة ابتسامة صفراء مستخفة ، لحظتها
النقطة فزاد غيظها وصارت تغلى فى داخلها أكثر ، لكن تلك الصفراء
لم تحل دون استمرار هواجس الخط أيضا فاستمر مسائلا نفسه :

— ولكن من أين لمثل هذه المفوضة بمثل هذه الأفكار ؟!
انها لاتغيب عن عيني ، وتدور حولى كالثور فى الساقية طوال
الوقت ، فكيف يتسنى لها التلطف بكلمات من هذا النوع ؟ لعلها

تغافلنى عندما أنعس وأنام فتذهب سرا الى ندوات حقوق الانسان ،
أو عليها تسمى - دون علمى - الى جمعية من جمعيات النساء الجديدة
المنتشرة فى كل مكان الآن .

راح الخط يتأمل النقطة جيدا ، ويتمعن فيها طويلا ، عله
يكشف متغيرات جديدة طرأت عليها ، فلما توصل الى أنها مازالت
كما هى مجرد نقطة صغيرة ، لا أزيد ولا أقل ، تنهد بارتياح وطقطق
أصابعه فى رضا وملل ، ثم قال لروحه :

- اتركها يا ولد تبصع وتفضفض عن روحها قليلا ، فكم من
مرة هبت وثار و زوبعت وعفرت وغضبت وحزنت لكنها فى النهاية
تطلع لفوق ، ثم تهبط على لا شىء . انها صغيرة ضعيفة ، حمقاء ،
رعناء هوجاء ، لاحول لها ولا قوة ، تظن أنها قادرة على العيش
بمفردها بعيدا عني ، لكن هيهات ، فهي لاتستطيع التحرك قيد أنملة
من مطرحها الا باذننى ومشيتنى ، فلتسكت يا ولد حتى تهمد نارها
وتصفو لوحدها . لكن النقطة نجحت فى اطلاق الخط بعد أن
حاول طمأنة نفسه ، وجعلته يتوتر فعلا ، فلقد استمرت فى
ثورتها ، ولم تكف عن الكلام وراحت تقول :

- ثم انك بدونى تفتقد كل معنى ، وينتفى منك المبني ،
فأنت محكوم وموسوم . بى ، ولايمكن أن تكون الا اذا كنت أنا .
سبحان المتجلى الجبار ، يضع رزقه فى أضعف خلقه .

زفر الخط بمرارة وضيق وهو يهيم لروحه : « اللهم
صبرك يا روح » ، اسكت يا ولد وامسك نفسك فهى نقطة ، مجرد
نقطة تافهة لا راحة ولا جاءت فلا تشق وراء استغزازها .

تثائب بملل وفضل أن يتجاهل الأمر كله ويتركها لينام قليلا حتى تهدأ ، فتكور رأسها من نفسه دائرة صغيرة ، وراح يصفر لحنا خفيفا هادئا لينسيه مهاترات النقطة وشغبها ويجلب له الناس . اغتاظت النقطة أكثر من سكوت الخط ولا مبالاة بالرد عليها ، وجاءت حركة نومه كدليل جديد على قلة احترامه لها واحتقاره واستخفافه بها ، لذلك اندفعت تقول حانقة :

— ثم اننى سبب وجودك ، وسر حياتك ، فأنا البيض وأنت الفيض ، اذا أنبعث فأنشطر فأتكاثر فأتلاصق فأتماسك فتكون أنت ، فأنت بعض من بعضى ، وأنا التى جسدتك لتكون من مبدا أساسك حتى منتهى رأسك .

انتفض الخط منتصبا حادا كالعصا ، فقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ولم يستطع تحمل المزيد من استفزازات النقطة ، والسكوت على كلامها المتكبر المهين ، وانطلقت كلماته كالحمم وهو يقول :

— اسمعى أيتها البائسة المغرورة ، لم أكن أرغب أن أرد عليك فى البداية ، أما الآن وقد سمعت منك ما سمعته ، فلسوف أواجهك بحقيقة وضعك فى هذا العالم ، فوجودك لا معنى له الا بوجودى يا مهملة ، يا مبهمه ، يا محدودة ، يا مسدودة ، يا كئيبة ، يا مريية ، يا غريبة ، يا وصمة — اذا كنت وحيدة دونى — على بياض أية صفحة . أنا الذى يحميك وينود عنك ويقول خلوها ، لاتزيلوها ، فهى مهما كان شكلها نافعة لاتغيب عنها الضرورة ، ولها بعض من الكينونة ، حتى وان كانت فقيرة ، صغيرة ، لاتستبين ثم عن أية حرية تتحدثين ؟! وهل لك من خيار حتى تختارين ، وتبتعدين ؟ أنت لا حرية لك ولا انتقاء . أنا الحر الذى يمكنه الصعود شمالا أو الهبوط جنوبا ، السريان شرقا أو التوجه غربا .

أنا المربع الواهى ، الغليظ ، المعلوم ، الحر ، الرامز ، المشير .
الرهيف ، الممدود ، المفروود ، المنكسر ، انكاسر ، المستقيم ، الموضح ،
المشدد ، المحيط ، المثلث ، المستدير ، المفروود ، الممدود ، الملموم ،
المضموم ، المعلوم ، القوى ، الضعيف ، الشساطر ، المشطور ،
المستوى ، المنحنى ، الرفيع ، العريض ، القصير ، الطويل ، القائم ،
المائل ، الرأسى ، الأفقى ، الفاصل ، القاطع ، الباتر ، الصارم ،
الحاد ، المنساب ، المستقيم ، الرقيق ، الدقيق ، اللين ، الطيع ،
الواضح ، الجلى ، المحدد ، الواصل ، المانع ، الحائل ، الدال ،
السلس ، المرن ، المتعرج ، القافل . أنا الذى آكون حرفا ، فأتجسد
ألفا وهاء وحاء ، أنا المتحول السرمذ : تحير فى كنهى الفلاسفة، وتغنى
بى المنشدون ، ألم تسمعى من قال : الحرف يسرى حيث الفصد :
ألا تدركين كيف أننى المتجلى ببهاء المعانى ، والقادر على التجسد
والتسامى ؟ أنا الذى آكون شموسا وأقمارا وبحسارا وأنهارا ،
أنا الورود والأشجار ، والمتجسد بهيئات الذوات ، منى تتكون
الجبال والتلال والبشر والأسماك والطيور . أنا من حفظ ذاكرة
الزمان ، ورسم معالم المكان ، أجرد الأشياء فى جوهرها فتبقى أبدا
إذا ما فنيت وغاب مظهرها .

ابتسمت النقطة ساخرة فى تشف وهى تتمدد قليلا لتتضح
وتستبين ثم قالت :

— تحدثنى عن الغرور ! وأنت لاتكف عن قول أنا ، أنا ، أنا ،
أعوذ بالله منك يا شيخ ومن قول : أنا ، ألا تعرف أنها سبيل
الشیطان ؟! ألم يبلغك قول من قال : « ذواتنا ناقصة ، وانما تكملها
الصفات . وأما ذات الله فهى كاملة ، لاتحتاج فى شىء الى شىء ،
اذ كل ما يحتاج فى شىء الى شىء فهو ناقص » (*) .

(*) عين انقضاة للممزانى .

غضب الخط كثيرا لسخريتها منه ، وعيبتها فيه ، فقرر أن يفحمها ويرد لها الصاع صاعين ، فرد عليها بلوم شيطاني - ربما لأن إبليس تمكن منه بعد أن غافله ودخل حلقه عندما كان يتشاءب لينام - قائلا وقد تحشرج صوته بحلق التوتر والانفعال :

- اصرت ترددين على ؟! ترفعين صوتك في حضوري ، وتسخرين مني ؟! ما شاء الله ! ما شاء الله ، والله جاء خيرك يانقطة ، والله عشنا وشفنا ! لكن بما أنك نسيت أن العين لاتعلو على الحاجب فصرت تنتقديتنى وتصفيننى بالغرور ، بل وتتفلسفين فى المعنى والمبنى ، وتخوضين فى حديث الصفات والكمال والنقص ، فلتعلمي أنك فسيفسة من ضلال الظلمات ، ووجود تعز عليه الصفات . أنت كئيبة ، مريية ، عديمة المبتدا والمنتهى ، لا وجه لك ولا قفا ، دوامة فى الدجى ، ومتاهة من العجز وقلة الحيلة ، أنت عين عمياء بلا رامش ، ووجودك بمثابة هامش الهامش ، لا تملكين من أمرك أمرا . ومع ذلك تتشددقين بالبقاء والذهاب ، والحضور والغياب ، ألا تعلمين أنه ما من ضرورة لوجودك الا بوجودى ، وأنت لا تملكين أن تجودى ، فأنت بلا فعل ، بلا حركة ، وأنا المجدد المتجسد حيثما كنت ، أما سمعت من قال : « الحركة حياة فلا سكون فلا موت ووجود فلا عدم » (*) ؟ وأنت قمة العجز وغاية السكون .

شعرت النقطة بمرارة الذل تجتاح حلقها . اذن ما هو الخط يعيرها بما غاب عنها من حظ فى الطبيعة وينكر عليها كينوتها المحسودة المتواضعة . لا يتقبل منها نقدا ، ولا يسمع لها احتجاجا . ينكر عليها مشاعرها وكأنها قدت من صخر بلا احساس . ودت

(*) ابن عربى .

لو تبكى لو تصرخ ، بعد أن استجارت منه بالله ، لكنها قررت
ألا تستسلم أو تتراجع ، فعلى الخط أن يفيق من سباته ويذكر
أن الدنيا تغيرت والزمن يسرى بروح جديدة فلا يمكن أن تستأثر
القوة وحدها بهذا العالم ، ولا يمكن للتفوق أن يكون معيارا
للوجود ، ففي الكون متسع للجميع ، وعلى الكل أن يتعايش مع
الكل . لذلك تماسكت ، وراحت تبتلع الاهانة ، مصمة على
خوض المعركة حتى النهاية ، وردت عليه بهدوء قائلة :

ـ مشكلتك أن ذاتك متورمة ، تحجب عنك رؤية ما حورك ،
لذلك فأنت جاحد وناكر للجميل ، تعيرنى برسمى وكسمى ، بينما
لا تنظر الى الشمس أمامك وهي تفرش الأفق كنقطة ضخمة رائعة
من الضياء . أنت لا ترى نقطة الأرجوان البهيجة وهي تبتعد ،
بينما تعيرنى بكسمى ورسمى ، وأنت الذى لا يستقيم وجودك
الا بوجودى ، أنسيت أنك لست الا المسافة التى بينى وبينى ؟
أنسيت أن أصلك منبعه أصلى ؟ ولا تكوين لك الا من تكوينى ؟
صحيح أننى صغيرة ، محدودة ، مسدودة ، لا أروح ولا أجيء لكنك
لا تستطيع الاستغناء عنى ، فعندما تتجسد فى كلمات أكون أنا
ملح الكلام وأساس الافهام ، أما سمعتهم يقولون عندما يكتب
المعنى برسمى : وهكذا وضعت النقاط فوق الحروف ، ثم انى
بابك الساتر اذا أمسكت وانتهى منك المقال ، فاذا كنت بعدك فهم
أنك أوفيت وأكملت . لقد كنت أظنك من اخوان الصفاء وخلان
الوفاء ، لا تبخس الصديق ولا تعير الرفيق ، فما بالك وأنا أجود
عليك بفضلى ، أنسيت أنك واحد ، وأنا التى أجعلك عشرة ومائة
وآلفا وآلفا ؟ أنسيت أننى أحل عليك بركتى التى هى من بركة
الله ، فتزيد وتتكاثر الى ما شاء الله ؟ . لن أسترسل فى الحديث
عن نفسى ، ولكن عليك أن تعلم أن الدنيا تغيرت ، وغصر العبيد قد
ولى وراح ، فليس لنفس أن تتسلط على نفس ، وهما كان ضعفى ،

أو فقري ، أو قلة حيلتي ، فإن جبروتك وتكبرك لن يجدي معي
بعد اليوم ، ولن تستقيم حياتي معك أبدا ، اذا ظل الحال كما هو
عليه .

تمطى الخط وتمدد في استرخاء وهو يقول لها بعد ما أدرك
هزيمتها وتراجعها من الهجوم الى الدفاع .

— ان ما تقولني ما هو الا بعض من حلاوة الروح المتبقية لك .
اجري يا شاطرة ، الهبي بعيدا عني كما نشائين ، ولكن قبل أن
تذهبي انتظري قليلا فسوف أريك شيئا .

صعد الخط عاليا ، بسرعة فوق السطر ، فرسم ألفا ، ثم
انزلق سريعا الى أسفل فعمل راء وبعدها تلاعب بجسده فخلق
ميما فسينا فعينا فدالا ، ولما انبعج بظرف كانت الصاد فالطاء
أما الحاء فقد سحبها بصنعة لطافة سرت الى اللام واللام ألف وأخيرا
تلولب ليستقر هاء في مطرحه مرة أخرى .

كادت النقطة أن تنفجر غيظا وهي تشاهد كل هذه القدرات
المدحشة المبهرة الساحرة للخط ، التي لا تستطيع لأي منها سبيلا ،
فلم تتمالك نفسها وشرعت تبكي بمرارة بينما الخط يسألها ضاحكا
ساخرا ، متشفيا :

مه ؟ ما رأيك ؟ تفضلي واعلمي شيئا واحدا مما عملته ثم
تحدثي بعد ذلك عن الحرية . مشكلتك هي مشكلة كثيرين من
أمثالك في هذه الدنيا ، يتشددون بعبارات طنانة لا مصداقية لها ،
ويتبنون نظريات لا يقرون على تنفيذها وانهاياتها في الواقع . من
البدوي يا عزيزتي أن تفعل ما نستطيعه ، لا أن نتشدد بـ

لا نستطيع ، ولكن كم من البديهيّات غابت عن هذا العالم ، ان أمثالك كثيرون ، أفنوا أعمارهم في سبيل كلمات ظنوا أنها قادرة على تغيير العالم ، والحقيقة أنها لم تغير الا مصائرهم التي سارت من بؤس الى بؤس . أنت صغيرة يلزمك الكثير لكي تعرفي وتدركي .

بدأت النقطة وكأنها لم تسمع حرفا واحدا مما قاله الخط . فقد انكمشت على نفسها تبكي بكاء متواصلا . كانت خلال هذه اللحظات تفكر في تاريخها ، عذاباتها ، آلامها الدائمة التي لا تنتهي في هذه الحياة . لم تكن تفكر في النظريات ولا في تغيير العالم كما يظن الخط . فقط كانت تتمنى أن تستريح قليلا ، أن تشعر بوجودها ككائن حر يتحقق مرة بمفرده في فضاء فسيح ، خال ، بلا صراع .

أخذ حجم النقطة يتناقص شيئا فشيئا كلما سكبت مزيدا من الدموع . كان لونها يبهت ، ومساحتها تتلاشى وقد تشوهت صفاتها وفقدت ليونتها وتكوينها الجميل . تجمد الخط في مكانه مرتعبا وهو يلحظ غيابها وتضاؤلها المتزايد أمامه . شعر بخطورة الموقف ومدى المصيبة التي ستحل به لو أن النقطة استمرت على هذا الحال . انها تتلاشى تختفى ، تضعف ، وستأتي اللحظة التي لا تبين فيها أبدا . فكر ماذا سيفعل بدونها ، وما الذي سيحل به لو غابت أو اختفت ، كيف سيتخلق ويتكون ويتحول ؟! كيف سيتمكن من أن يصبح باء أو ثاء ؟ كيف يرتسم شيئا أو ضادا أو قافا أو فاء أو تاء مربوطة وغير مربوطة ؟! وفكر أيضا ماذا سيكون مصيره عندما يكون أرقاما . انه لن يستطيع بعدها أن يكون عشرات ومئات وألوف وألوف . لن يتمكن من الاستفهام ، ولن يتيقن من معانيه . كاد هو الآخر أن يبكي وهو يستعرض في رأسه صورته بدونها ، وحيدا ضائعا ، ناقصا ، عاجزا ، بعيدا عن الإكمال . تضرع صوته وهو يناجها ويرجوها ويناشدها قائلا :

— لا .. لا .. أرجوك .. كفى ، كفى ، أنت تضيعين روحك
بالنواح ، جسمك صغير ، ضعيف ، لا يتحمل كل هذا الحزن
والانفعال . وفري دموعك . أنا لا أستطيع الاستغناء عنك أبدا .
هل فكرت كيف سأكون وحيدا بعدك ؟ كيف ستكون حياتي وأيامي
بدونك ؟ ومستقبلي في غيابك ؟

راحت النقطة تراجع مع نفسها كلماته وتتساءل : هل هو
صادق حقا فيما يقول ، هل هو يتراجع ويراجع نفسه في علاقته
بها ؟ وهل نبرات الصدق التي سمعتها لتوها منه كافية لأن تجعلها
تعيد النظر فيما قرره ؟ ثم انها فكرت في مصيرها هي أيضا .
الام ستؤول حياتها ؟ وكيف ستعيش وحيدة في هذا العالم ؟ لقد
اكتشفت أن الرباط بينهما هو نوع من القدر الأبدى الذي لا يمكن
أن ينقسم أبدا . ولكن آه لو يفهم . آه لو يفهمها هذا الخط ولو مرة
واحدة ويتمثل مشاعرها وأحاسيسها .

بعد صمت طويل نطقت النقطة ترد على الخط قائلة :
— اذا كنت جادا في كلامك ، فيجب أن تعترف بفضلي
عليك ، وضرورتى لك ، وأن بقائى معك يجب ألا يخل بكينونتى ،
فلقد سئمت الحياة مع الحب والكراهة فى آن ، فاما تفاهم فحب
فاحترام ، فاستمرار ، واما اختلاف ، فبغض ، فازدراء ، ففراق ،
فأنا لا أحب شعرة معاوية ، لكننى أصبو الى حبل الوداد المتين
الذى يمتد — لو شاء الله — الى يوم الدين .

تأملها مجددا باعجاب وافتتان ، ثم هز رأسه وتبسم وكأنه
يرى وردة تتفتح ، وبلت له بالفعل جميلة ، قوية ، مؤثرة ، على
الرغم من ضغرها وضعفها ، لكن الى أى مدى سيتمدد تمردا هذا ؟
وما الذى سيترتب عليه ؟ مد لها ذراعيه ليحتويها بينهما ،
واستجابات هي رغم ما فى داخلها من تساؤلات فتلاقيا وهما يشكلان
على نحو غاية فى الروعة حرف النون اللازم بداية لرسم كلمة نور .

بحر الأمل

صبيحة كل يوم ، تصعد الى العالى بصحبة أمها حتى الشقة الخامسة والعشرين فى الدور العاشر فتدخلان المطبخ الواسع ، الذى هو أوسع من بيتهما كله ، وبلاطه كبير ولامع كأنه مرايا بحق وحقيق .

تبقى هى جالسة على كرسى من كراسى الطاولة كما تأمرها أمها عادة ، حتى تفرغ من غسيل الصحون ، ولم الحوض وتلميع الدواليب . قد تعطيها شيئا مما تبقى فى صحون الافطار لتأكله أو تمنحها بعضا من حليب فائض فى اللبانة لتعبه قبل غسلها خلال ذلك يأتيها صوت الأم ناهرا :

— حطى مفتاح الباب مطرحة ، اياك يضيع وصاحب الشقة يعملها لنا حكاية .

تضع المفتاح مكانه على الطاولة المستديرة بأسف ، فهى تحب العلاقة القوية المنتهية سلسلتها بمركب له شراع ، والمشبوك بنا المفتاح ، بينما تخاطب روحها : « آه لو يكون عندى واحدة مثلها ، ألعب بها كل يوم ! » .

بعد أن تنتهى أمها ، تخرجان الى الشرفة الجانبية الصغيرة ، الملحقة بالمطبخ لنشر الغسيل ، فيصدمها فى كل مرة المشهد القادح

للمدى السماوى المفتوح فوقها ، وتبقى عيناها محلقتين فيه ، وهى تتابع عبور سحابة متكومة كقطنة ضخمة شاهقة البياض ، أو ترصد طيرا يتريض رياضة مفتتح الصباح ، أما عندما ترسل بصرها بعيدا الى تحت ، وتموج روحها بموجات الدهشة والانبهار ، فانها تقترب من الافريز الحديدى المرتفع للشرفة ، فى محاولة للتشبث به ، لتتسلق وترى أكثر، وما أن تفعل حتى ترتد مبتعدة وقد نهرنها أمها صارخة :

— غورى — ابعدى عن السور • ادخلى جوه أحسن لك •

تقبع عند باب الشرفة فى طاعة وامثال ، لكن ذلك لا يمنعها من السؤال عن كل ذلك الماء الكثير •• ياما ، وفى كل مرة يأتى صوت الأم خارجا مع كثير من الضجر ، أو مع مشبك كانت تمسكه بأسنانها ريثما تفرغ يديها من نشر منشفة حمام ، أو ملاءة سرير ، وهى تقول :

— قلت لك ستين مرة ، بحر النيل • بطلى غلبة وكلام •
الله ؟! •

هى تعرف أنه بحر النيل ، لكنها تحب الكلام عن بحر النيل ، لأنه جميل ، كبير ، واسع ، على ناحيته زرع أخضر وشجر عال ، وفيه مراكب بأشرعة تروح وتجيء ، وهى تحب أمها عندما تغنى له فى بعض المرات ، عندما تقوم بدعك الصحنون ، أو بتلميع زجاج الشبايك فى الشقة الخامسة والعشرين ، وتقول :

— أمانة يا أسمر يا جميل

سلم لى على بحر النيل

تفكر وتسبح بخيالاتها فيه ، بينما صورته تتجسد دوماً في عينيها : مياه كثيرة .. ياما ، ماشية لبعيد ، ولطالما تمنّت وهي على تلك الحال أن تعيش في الشقة الخامسة والعشرين ، في الصبح وفي النهار وفي الليل ، حتى تبص على بحر النيل في أى وقت وتشوفه ، وكم تمنّت ألا تهبط مع أمها أبداً الى بيتها في أسفل العمارة ، حيث لا شئ يرى الا تلك المناظر التي تكره مشاهدتها ، وتجعل روحها مخنوقة وزهقانة دائماً ، لذلك فهي في حالة دهشة مزمنة ، وتساؤل لا يغيب عنها ، عن السر في أن أمها لا تعيش في الشقة الخامسة والعشرين ، وتنام على السرير بجوار الرجل الوحيد ساكن تلك الشقة ، مثلما تفعل وتنام الى جانب أبيها الذي تكنس وتمسح وتطبخ وتنشر الغسيل له في المنور بين الحين والحين .

لم يكن هذا السؤال المعضلة هو الوحيد الذي دفعت به الى مخيلتها الشقة الخامسة والعشرين ، بل كان الأهم منه بالنسبة اليها ، والأكثر إثارة لروحها ، هو شرفة الشقة الخامسة والعشرين ، وما تظهره من بحر النيل العجيب ، ومياهه الكثيرة ، السارحة لبعيد ، لذلك أفصحت عن هواجسها ذات مرة وساءلت أمها :

— عاوزة بلكونة الشقة خمسة وعشرين تكون عندي ، عاوزة أشوف من فوق .

تنهدت الأم ، ثم تصعبت وهي ترد بحكمة تعليمية ، لم تجعلها تصرف النظر عن قلبب تقليبة بصلة فول الغداء وتقول :

— بصي من هنا أحسن .

بصت دائرة ببصرها على جدران الغرفة/البيت فلما لم تشف غير جلابية أبيها البيضاء ، المعلقة على المسمار ، وحزمة

الثوم المربوطة على مسافة منها ، والمعلقة على مسمار آخر ، ثم الرف العالي المحبوطة عليه دواء أبيها ، ومفتاح الغرفة ، شعرت كأنها على وشك الاختناق ، فحتى الشباك الصغير فى الحجرة ، والمفتوح على المنور ، لا يستبين من ورائه غير حيلة الطوب الأحمر ، ومواسير المجارى الغليظة السوداء .

تركت أمها لتقليتها وفولها ، وانسحبت خارجة الى فناء العمارة ، مشت قليلا حتى وصلت الى مدخلها ، وقفت تتأمل الشجرة العالية الموجودة فى نهايته قرب رصيف الشارع ، فكرت ، وهى تتنهد برضا ، فى جذعها المتين ، وفروعها العالية الممتدة ، والتى تعرف بعضها القريب من الأرض ، فلطالما قفزت اليها ، وتشبثت بها لتؤرجح نفسها وتلعب ، لكنها الآن تفكر فى الشجرة على نحو لم يكن قد خطر فى بالها من قبل ، وهكذا وجدت نفسها تتقدم منها ، وتأخذ فى تسلق جذعها الراسخ فى سهولة ويسر ، ثم تعتليه دونما مشقة ، يعاونها جسد خفيف لم يحظ بغذاء يليق بطفلة لم تبلغ السادسة بعد .

ما أن استقرت على الجذع حتى راحت تتجاوزه صاعدة الى الفروع ، وكانت كلما صعدت فرعا يستبين لها جزء من بحر النيل . فتأخذها المغامرة أكثر ، ويدفعها الطموح الى فرع أعلى تشاهد منه أكثر وأكثر مما تتمنى دائما ، وهكذا راحت تبعد شيئا فشيئا عن فروع الجذع المتين الى فروع الفروع العليا .

كان سؤال يلحف فى روحها ويعصف بها أثناء ذلك ، بينما يدفع بساقها ويديها بعيدا الى أعلى ، « هل يمكن أن أراه عندما أصل أعلى فرع ، مثلما أراه دوما من شرفة الشقة خمسة وعشرين ؟ » .

بعد لحظات ، بدا لها أنها أوشكت على الإجابة عن السؤال ،
اذ كانت مساحة لابأس بها من الجسد المائى الساحر الممتد قد باتت
ملك ناظرها ، وهى تقبض بيدها على فرع جديد ، وقد هىء لها أنها
اذا بلغت بلغت مرادها ومنتهى أملها فى رؤية بحر النيل كاملا ،
رائعا ، عظيما ، مثلما يكون أبدا من شرفة الشقة الخامسة والعشرين .

فى هذه المرة ، حدث ما لم تتوقعه ، وكان لابد أن يحدث ،
فقد تشبث فرع الشجرة الصغير الغض بفرعها ، مثلما كانت
تشبث هى بفروع أمه الكبيرة ، وسرعان ما عكس رحلتها الى
الأعلى ، فهوى هابطا بها ، وقد ناء بحمله المستحيل .

بعد ذلك بساعات ، كانت قد بدأت تفتح عينيها فى المستشفى ،
تطلعت من رقدتها الى أعلى ، لم يكن هناك غير السقف الأبيض وقد
تدلت منه لمبة الكهرباء بسلكها الطويل ، هبطت بعينيها الى أسفل ،
فلم تجده الى جوارها غير أمها ، وأبيها وقد وقف مرتديا جلابة
المسمار ، والتي لا يستعملها الا لاما فى المناسبات المهمة . كانت
أمها تبكى وهى تنظر الى ذراعها ورجلها الملفوفين فى لفائف صلبة
بيضاء ، ثم سمعتها تقول لها باشفاق وحنان .

— شفت آخر شقاوتك وعفرتك . كان لازمك البص من
فوق .. يعنى !!

التكهن

هذه المرة ، وبينما كنت جالسة أنتظر الطائرة في مطار أمستردام ، لم يداخلى ذلك الشعور اللامبالي الذى يهيمن على حواسى عادة كلما كنت على سفر ، فالجغرافيا لن تكون بعد قليل الا سحابات عابرة ،^١ أما التاريخ ، تاريخ المرء الشخصى ، فيمكن^٢ الذاكرة كنوع من الهلام غريب يصعب الامساك به ووصله بالزمن الحاضر ، آاذ يولد الطيران حالة لا مرئية غامضة من الاتصال الانسانى ، اتصال بأناس لا ولن يربطك بهم تاريخ ، ولن تقاسمهم الجغرافيا .

وخلال ذلك الوقت من تلييل الليل ، كنت أكابد مللا وتعبا ونعاسا يغمر رأسى ، وقد تلخصت آمالى كلها فى مقعد طائرة استقر عليه لأتخفف من عبء رأسى وأنام ، فالرحلة التى قطعت جزءا منها قادمة من استوكهولم الى أمستردام ، والتى مازال على أن أنجز ما تبقى منها حتى القاهرة ، باتت مرهقة ومملة لى ، خصوصا بعد أن أعلن عن ساعة تأخير كاملة بالنسبة لموعد الاقلاع المحدد ببطاقة السفر . هكذا اضطررت للجلوس فى انتظار استدعائى مع بقية الركاب لصعود الطائرة ، غير أنى وقد اكتشفت أن لا طائل من الملل والضيق ، قررت التسرية عن نفسى ، ورحمت ألعبها لعبة كنت قد ابتدعتها منذ زمن وألعبها عادة فى مثل هذه الظروف ، فكنت آأخذ بالتطلع بين الحين والحين الى جمهرة المسافرين الجالسين حولى ،

وأحاول معرفة البلاد التي جازوا منها ، وطبيعة أعمالهم ، والغرض من تنقلهم . كان على ، وقد بدأت في اللعب . أن أسقط جمع العجائز اليابانيين من حسابي ، إذ أنهم أفسدوا الأمر على منذ البداية ، فما ضرورة التكهن بشأنهم ، لأن الياباني وقد أفصح عن نفسه بلامحه المعهودة ، منذ اللحظة الأولى لا يمنحك لذة اكتشافه ، وبصفتي مديرة شركة سياحية ، أعمل في مجال السياحة منذ ما يزيد عن عشرين سنة ، يسهل على التأكيد أن هؤلاء اليابانيين سيستقلون الطائرة ليهبطوا في مطار القاهرة فيصعدوا منه مباشرة في طائرة أخرى متجهة الى مدينة الأقصر ، ليمضوا ثلاثة أيام وثلاث ليال فيها ، يهرولون خلالها طيلة النهار سعيا وراء الآثار في وادي الملوك ووادي الملكات ، ثم يذهبون آخر اليوم الى الفندق فيغتسلون ويتعشون وينامون .

صرفت بصرى عن الصفر ، مفسدى اللعبة ، وجلت ببصرى في بقية المنتظرين : بضعة مصريون ، أظنهم من موظفي سفارة لنا بالخارج ، نساء بعضهن محجبات يرتدين أزياء متاجر أوروبية ، غير أن كمية الذهب حول أعناقهن وأذرعهن ، وطريقة استخدامهن لمساحيق التجميل ، وتلك النظرات المدعية المتعالية متصنعة القيمة . تسفر في الحقيقة عن هزة داخلية ، ربما سببها طبيعة الحياة في الغرب المتناقضة مع قيمهن القروية والمتجلية بوضوح في كومة العيال المصاحبة لهن بين راضع ، ومحمول على الكتف ، وجالس على الحجر وصارخ ولاعب وباك .

اذن ، لم يبق لي غير هذين العاشقين اليافعين : أرجح أنهم من الألمان فهما يتعانقان بين الحين والحين ، بينما يطالعان كتابا اقتنصت حروفه اللاتينية من الغلاف ، ربما كان عن أنظف المطاعم في القاهرة ، وكيفية تجنب ابتزاز تجار خان الخليلي ،

وتجنب نصب الأدلاء السينائيين ، ومجموعة من النصائح الضرورية
للسياحة في بلد غير متحضر يقدمها المؤلف لمواطنيه .

لكن ها هو مسافر جديد يأتي ، قلت لنفسي وأنا مستمرة في
اللعب : عظيم !! ، لمحتة يدخل مسرعا ، يقترب من شماعة الجرائد
الموضوعة في ركن الصالة ، يقلب المعروض سريعا ، يختص
الديلي تلجراف فيسحبها ويتجه الى مقعد أمامي ، ثم يترك حقيبته
الى جانبه ويأخذ في القراءة . ربما كان انجليزيا أو أمريكيا قلت ،
هو تحت الخامسة والأربعين تقديرا (لم يكن يستخدم نظارة
قراءة) ، يرتدى بذلة رمادية داكنة تحتها قميص قطني سماوي مع
ربطة عنق سوداء ، وجهه لا يخلو من وسامة كلما استبان من خلف
صفحات الجريدة التي راح يقلبها دون مهل ، عابرا عبورا سريعا
على ما في صفحاتها وكأنه لا يقرأ غير العناوين الكبيرة البارزة ،
رجحت ، من ذلك ، ومن بنيت المتينة نوعا ، أنه ربما كان لاعبا من
لاعبى كرة القدم ، أو مندوبا لشركة دولية من تلك الشركات عابرة
القارات ، أو متعددة الجنسيات الحاكمة للعالم والمتناثرة فروعها
على خريطة بلادنا كالرز في الطبق بعد توقيعنا على اتفاقية الجات .
الحقيقة أننى استبعدت أن يكون واحدا من المشتغلين بصناعة
الأفكار : أستاذ جامعة ، كاتب ، باحث مثلا ، فوجهه الوسيم
نوعا ، ونظراته الراضية المطمئنة ، وان شأبها شئ من التعالي
السائد في نظرات بعض الغربيين ، تصعب قراءتها على وجوه أولئك
المهمومين ، المتعبين بما هو أبعد من الذات .

راجعت نفسي ، قلت : قد أكون مخطئة في تقديري فالملل ،
وربما التعب قد يدفعه مثلما يدفعنى الآن الى عدم الرغبة في القراءة .
على أية حال ، وأيا كانت المسألة ، نجحت ليعبتى التي لعبتها في
التلاعب بالوقت ، وهضم الملل ، فهاهم ينادون على ركاب الطائرة ،

وها أنا أسارع للاصطفاف في طابور المغادرين ، لأكون قاب قوسين أو أدنى ، كما يقولون ، من مقعدى المأمول .

لم تمر الا دقائق قليلة إلا وكنت مستقرة على كرسى بجانب كوة من كوات الطائرة الصغيرة ، في جناح غير المدخنين . كنت قد اقتنصت المقعد على طريقة وضع اليد ، لأن مقعدى الاصلى كان فى ناحية الممر ، لكنى أحبذ الجلوس وقت السفر بجانب النافذة لأراقب الطريق ، وان كانت هذه الرغبة بلا معنى الآن فى شتاء تلك الليلة الأوربية من ليالى شهر ديسمبر القارس ، حيث السماء لا تفصح عن أى مشهد للناظر اليها من الشباك ، غير منظر سوادها الشايل الحالك .

ربطت حزام الأمان ، مدت قدمى المتعبتين ، وماكدت أتأهب مضطجعة لأحلام سعيدة خلف جفنين مغمضين الا وكان ذى البدلة الرمادية والقميص السماوى قد جاء ، وراح يمارس طقوس الاستعداد للرحيل ، فبعد أن وضع حقيبته داخل الرف المملوء المخصص لحقائب اليد وأغلقه ، راح يتطلع الى رقم المقعد الشاغر الى جوارى ، ومقعدى ، ورقم مقعده فى البطاقة ، نظر الى نظرة ذات مغزى ، قلت له على اثرها :

— عفوا . جلست مكانك ؟! أستطيع أن أتركه لك .

هز رأسه نافيا ، محركا كتفيه بلامبالاة . ثم جلس على الكرسى المجاور بسرعة ، ربط الحزام وفعل ما كنت أحاول فعله لتوى ، اذ أغبض عينيه لينام .

تكهنت : لا يمكن أن يكون ألمانيا ، والا لكان أصر على مقعده ، وهل يتفاهم الألمان فى مسألة تخص النظام ؟! لكنه ربما كان كنديا

مثلا ، لماذا حصرته فى الجنسية الانجليزية أو الأمريكية ؟! تدافعت مشاهد الرحلة بسرعة ، وكأن القائمين عليها يبغون تعويض التأخير وما فقدناه من وقت ، أخذ قائد الرحلة يعلن عنها ويزودنا بمعلومات عما سيكون عليه الحال أثناء الطيران ، درجة الحرارة الداخلية والخارجية ، الارتفاع ، كيفية مراعاة قواعد الأمان . انتهى بسرعة ليفسح زمانا لموسيقى خفيفة محايدة ، حركة المضيفات لا تنقطع ، أصوات المحركات تأخذ نصيبها هادرة ، جارى يتململ فى كرسيه ، أذنى تأبيان السكينة وتبصران مالا تراه عيناي المغمضتان ، أشعر بحرارة رغم برودة الجو ، أفك زر قميصى العلوى وأتهد بضيق طالبة خلاصا من حالة الاحتباس الطائر هذه . أخيرا تبدأ الطائرة - ولا أعرف لماذا لم يسمونها الطائر ؟! - رحلة صعودها السماوى بعد أن تتدلل على المشى قايلا ثم تندفع الى أعلى وفى لحظة فريدة ، أعتبرها من أجمل اللحظات لسبب غير مفهوم لى .

سرعان ما بدأ صوت فك الأحزمة المربوطة مرة أخرى ، وصوت الكراسى وهى تأخذ وضع الاضطجاع ، أقدام المضيفات تتقدم وهن يجرجن عربات المشروبات ، أخيرا وقفت المضيضة أمامنا ، فتحت عينى ، سألتنى عما أريد أن أشربه بينما كان جارى يمد يده لها بورقة أخذتها دون أن تنظر اليها . قلت :

- نبيذ . سألت :

- أحمر ؟

- أبيض من فضلك .

ناولتني الكوب البلاستيكي ، صبت بعضا من نبيذ الزجاجاة الصغيرة فيه وابتسمت . ولا أدري ان كانت قد قرأت ورقة جاري أم لا فقد انشغلت برشف قليل مما صبته لي ، لكنني لاحظتها وهي تضع أمامه زجاجة ماء معدني وكوبا ، صبت له مثلما فعلت معي ، فشرب بنهم غريب ، وما هي الا لحظات حتى كان قد أتى على ماء الزجاجاة كله .

أخذت أتجرع النبيذ في بطء متلذذة ، كنت أتوسل به لأسترخي وأنام ، وهو ما حدث بعد ذلك بقليل ، اذ كان جسدي قد أخذ يتراخي ، ونعاس مهيم يجرني اليه ، فكرت في الاستسلام، لكنني آثرت التريث قليلا حتى آكل شيئا يسيرا ثم أغطس بعد ذلك في بحار السبات .

بدا جاري وكأنه لا يراني ، ارتحت لذلك وحمدت الله ، فأنا أكره الكلام والثروة أثناء السفر ، مثلما أكره الحديث مع الغرباء ، الذي يكون عادة كمية لا حد لها من المجاملات ، وهذا ما أكره وأعاني منه لأنني مديرة شركة سياحية اضطر للمجاملة والكياسة كثيرا حتى أنجز أعمالي وأحصل على وفود . لذا أنا مستريحة الآن لرفيق الساعات القادمة ، فهو على ما يبدو من ذلك الطراز المنسحب على ذاته ، المتحفظ في علاقته بالآخرين .

جاءت مضيئة أخرى تجر جر عربة الطعام ، وضعت أمامه صينية وسألتني ان كنت أفضل السمك أم الدجاج ، فلما طلبت سمكا ، فتشت لديها ، وطلبت مني الانتظار لحظات ريثما تذهب الى المطبخ وتعود لي بالسمك الذي كان قد نفذ من عربتها .

كان جارى خلال ذلك قد فرش المنديل الورقى المخصص للطعام على فخذه ، ثم ظل منتظرا ، فلم يشرع فى الأكل حتى عادت المضيفة بالسّمك لى . وما أن بدأت باخراج أدوات المائدة من كيسها السلوفانى الشفاف حتى أخذ فى التهام طعامه .

رحنا نأكل صامتين ، التهم طعامه بسرعة واضحة ، هز رأسه المضيفة الشاى والقهوة رافضا ، وفعلت مثله ، اذ كنت لم أزل أحتسى نبيذى . وبمجرد أن سحبت المضيفة صينية الطعام مرة أخرى ، نكش أسنانه ونام .

رحت أنا الأخرى ، خصوصا وأنهم خفضوا درجة الاضاءة ، وكنت أهله روحى متمنية لها نوما هادئا ، بعد أن اخترت أغنية قديمة من مجموعة أغنيات عبرت ذاكرتى ، وأخذ ينساب بداخلى على نحو تكررارى لحن « شباكنا ستايره حرير من نسمة شوق بيطير » ، كان يتدفق واضحا فى داخلى وكأنى كنت أسمعه من مذياع بالفعل ، أو من أسطوانة حقيقية ، حتى وقعت شيئا فشيئا أسيرة للنعاس .

لا أدري كم مر من الوقت على ذلك ، لكنى صحت على اهتزاز شديد فى الطائرة ، كانت تتطوح كأرجوحة يلهو بها طفل صغير ، قلت لروحي : انها المطبات الهوائية لا غير . كنت مضطربة قليلا ، نظرت الى جارى عله يمدنى بما يهدئنى لكنى وجدته مستغرقا فى نوم عميق . فجأة وبينما رحت أظالعه ، تجملت فى مطرحى ، وشعرت بشعور غريب يسرى فى جسدى ، كان جارى فاتحا ساقيه تماما ، وقد خلع الحذاء من قدميه ، بينما لامس برجله رجلى وركبتى ، أما يده اليمنى فكانت مستقرة على فخذى تقريبا ، بعد أن مدها لتتجاوز المسند الفاصل بين مقعدينا عابرة حدوده الى حدودى .

لا أدري لماذا ارتبكت وقد بدا لي وكأنه رجل ينام على فراشه في البيت ، أظن أنني وقعت في مشكلة سخيفة إذ أخذت أتكهن بدوافع سلوكه هذا على النحو التالي : أولا : رجل نائم بالفعل ولا يدرك ما يفعله . ثانيا : شخص وقع يسعى لمعاكسة وضيفة من الدرجة العاشرة . ثالثا : انسان غبي ، سيء التقدير ، بليد ، يتصرف بأنانية بالغة وعلى راحته دون اعتبار لوجود آخرين .

قلبت الاحتمالات الثلاث مفكرة بسرعة في محاولة للمواجهة السريعة . هل اشتمه ؟ أم أرفع يده بعنف الى أعلى وأتركها تهوى الى أسفل السافلين فيفيق ؟ أم يتوجب على أن أهزه من كتفه ليفيق ثم أشرع في توبيخه بشدة .

لم أفعل أى من هذا ، فلقد حرت ولم أقو على أى فعل ، ربما بسبب ذلك التعبير البريء الذى بدالى مرتسما على وجهه فى ظل هذه الاضاءة الخافتة ، زادت حيرتى ، تذكرت أفلام السينما ، حيث تنام البطلة فى بعضها على كتف البطل ، كدت أضحك ، قلت : لا ! مستحيل أن يبلغ الانسان هذا الحد من قلة الذوق ! اذن سأوبخه فهذه وقاحة فعلا ! لكنى تراجعمت وأنا أتوقع الجلبة التى يمكن أن تنتج عن ذلك ، فتلفت الأنظار الى وتجعلنى موضوعا يدفع الركاب به مللهم خلال بقية ساعات السفر ، تراجعمت وأنا أراجع لفتته المتحضرة فى انتظار سمكى قبل الشروع فى التهام صدر دجاجته ، وفهمت خلال ذلك عبقرية بنات الجامعة عندنا فى ادارة الأزمات ، فقد حكى لى أحدهن أنهن يخرجن دبوس ابرة صغير يخزن به جار السوء فى المواصلات العامة عندما يتعرضن لمضايقات مثل ما تعرض له الآن ، فالوخذ يدفع الجار الرذيل للابتعاد عنهن ، دون أن يلتفتن اليهن الأنظار ، أخيرا : حظيت بالهام ، فانتفضت تاركة له يده ورجله ليفعل بهما ما يشاء ، مقررة الذهاب الى دورة المياه ، لكن

حركتى المفاجئة أيقظته • نظر الى نظرة غريبة ، خيل الى أنها لا يمكن أن تكون لانسان كان نائما لتوه ؛ لأنها لم تكن مشوبة بأى نوع من الدهشة أو المفاجأة ، ولم تكن متشبثة بأية رغبة فى العودة الى الوعى • قلت له وأنا أنظر اليه وقد شمرت بارتباك جاهدت لأخفيه :

— عفوا •

لم رجليه قليلا كى أعبر ، احتككت به رغما عني ، وسرت الى دورة المياه •

عدت بعد قليل ، وجدته مسندا رأسه الى مؤخرة المقعد وقد اشرب بعنقه قليلا ، بدا وجهه على هذا الوضع أكثر وسامة مما ظننت ، انفه على وجه الخصوص بدا جميلا شديد التناسق مع العينين والفم ، هممت أن أقول له : اذا نمت فالتزم حدودك ، لكنى وجدت العبارة طويلة بعض الشيء ، فقررت اختصارها الى : من فضلك لا داعى لذلك ، لكنها كانت مهذبة ، غير حاسمة ، فغيرتها الى : اياك أن تفعل ذلك مرة أخرى ، فلما وجدت أنها ستفتح الباب للأخذ والرد آثرت الصمت وقد تملكنى غيظ وضيق • اكتفيت بالجلوس مرة أخرى على مقعدى ، وإدارة ظهري له حتى نهاية الرحلة ، بعد أن أخذت وضع التحفز والاستعداد لمواجهة أى هجوم وارد جديد •

يبدو أننى نعتت مرة أخرى ، وأنا على هذا الوضع ، لأننى عندما أفقت كانت الاضاءة غامرة • والمضيئة تمر على المقاعد لتتأكد من ربط الأحزمة من جديد • ربطت الحزام ورحت أتطلع من الشباك • كانت أضواء موطنى قد بدأت تلوح من بعد •

مرت أيام على عودتي الى أرض الوطن ، نسيت خلالها أحداث
زمن الطيران العابر ، لكنى ذات صباح ، وبينما كنت منهمكة مع
أحد الموظفين فى متابعة عمل لى فى أحد الفنادق المعروفة بالبلد ،
وجلت جار الطائرة يتقدم نحونا ، وقد ارتدى الملابس ذاتها التى
كان يرتديها أثناء رحلتنا معا ، وكان يحمل بيده الحقيبة السوداء
نفسها ، نظر الى قليلا وكأنه يرانى لأول مرة ، ودون أن يقول
شيئا ، رأيت يخرجه قلما من جيبه ويكتب ورقة للموظف ليقرأها
الأخير وهو يهز رأسه موافقا .

المشهد

كنا مضطرين للتوقف والانتظار ، اذ باغتتنا اشارة المرور بعينها الكبيرة الحمراء ، وراحت تعوى بعنف ، وهكذا تحققت من ضخامة الجنازة عن كشب ، بعدما تقاطر المشيعون عند المزلقان ، وبدأ واضحا مدى التزامهم في ذلك الحيز المحدود من سكة القطار .

كان حملة سلات الورد الكبيرة ، والموشحة بالشرايط البنفسجية في مقدمة الجميع . لذلك فقد توقفوا أولا مسندين سبلاتهم الى الأرض ، ليتخففوا من عبء حملها قليلا ، أما النعش الجاثم بثقله على أعناق من خلفهم فقد كان فاخرا جدا ، وقد تسربل بغطاء من الأزرق الساتاني الداكن ، الذي راح يسكب لمعانا بألوان رقاب الحمام ، المتدرجة المتداخلة تحت شمس صيفية فاضحة .

تنهت وأنا أتابع متلذذا انكسارات النور والأعيبه الفاتنة . فكرت في كل هذا الاحتشاد حولي ، والذاكرة تواتيني من مخزونها القديم المهمل بمثل فرنسي عن شيئين لا يمكن اخفاؤهما : زنا الفقير ، وجنازة الغنى . بعد قليل من الوقت ، بدأ الجمع متبرما لهذه الوقفة التي لم يحسب حسابها ، أخذ البعض يتململ في مطرحه ، بينما انشغل آخرون بهمس سريع ، تخلله اشعال السجائر بدا حملة

النميش لي أكثر ضيقا من غيرهم وهم يبدلون مراكز الالتقاء على أقدامهم ، وينقلون صندوق الميت من كتف الى أخرى .

رفعت بصرى عنهم ، لألتفت الى الواقف بجواري ، عندما زفر بحرارة فجأة ، وقد أخذ صرير عجلات القطار الحديدية ، يتمدد ويزحف الى الآذان ، بطيئا ، رتيبا ، ثقيلًا ، ثم قال لي بنفاد صبر وقلق : ياه .. بضاعة . فهزرت رأسي مؤمنا على ما قاله ، ولم أرد ، اذ كنت قد بدأت أفكر في عبثية موقفى خلال هذه اللحظات ، فما معنى مشاركتى في جنازة رجل لا أحمل له أى شعور غير الكراهية ؟ ، لقد جئت للمشاركة في هذا المشهد مدفوعا بما يمليه الواجب ، وتفرضه الأصول ، وحتى لا يأكل أحد وجهى - مثلما كان ينصحنى أبى دائما - ولكن أى واجب هذا ؟ ، وأية أصول تلك التى تجبرنى على السير في جنازة نذل بالاجماع ، ولص لا يختلف عليه اثنان في المؤسسة الشعبية للطباعة ؟ ، لماذا أقف هنا الآن مع الواقفين لاشيع « عرفى حلاوة » ذاك الذى لازمة له ولا ضمير ، الذى باع المؤسسة الشعبية - مؤسستنا - بأرخص الأثمان ، وألقى بها في نار الخصخصة ، بعد أن صال وجال ، وسمسر وقبض ، بصفته رئيس مجلس ادارتها وأكبر رأس من الرؤوس المتحكمة فيها ؟

أدرك تماما أن جل هذا الحشد الرهيب من عمال وموظفى المؤسسة يكرهونه مثلى تماما . بل ان بعضهم كان مستعدا لو وافته الفرصة ذات يوم - لقتله ، أو خنقه بيديه ليقتص منه قبل أن يموت ميتة ربه ، فكل واحد منهم ذاق ولا بد سطوة « عرفى حلاوة » المرة ، وهيمنتته وتحكمه فى رقاب العباد . أما أنا فأمقتة ، ليس فقط بسبب مفاسده المهنية وجرائمه فى المؤسسة ، ولكن مقتى له خاص جدا ، فهو المسؤول المباشر عن نقلى من قطاع الضيافة الى قسم العلاقات العامة ، بالأحرى هو قتلنى بالحياة ، وبجرة من قلمه الأسنود . فأنا

مهندس ميكانيكى ناجح . هوايتى الحقيقية فى الدنيا هى فك وتركيب الآلات . وقد كنت طوال فترة عملى فى قسم الصيانة قادرا على اصلاح أصعب الآلات وأعقدها ، كنت ألهو بها كما يلهو طفل صغير بلعبته . ولكن «عرفى حلاوة» أبعدنى عن عالمى الأثير ، ووضعنى على الرف بعيدا فى قسم العلاقات العامة . كعبوة معافة من الجبن الفاسد فى محل بقالة . لأنه فى الحقيقة لم يكن راغبا فى اصلاح أية ماكينة ، حتى يبيض ويصفر ، ويبيع الآلات الممكن تشغيلها واصلاحها على سبيل الخردة . ويكسب من وراء ذلك ذهباً . لكن ماذا حملت معك الى الآخرة من كل ذلك يا عرفى حلاوة؟ . ماذا حملت معك من كل هذه الأموال الحرام المسروقة ؟ . أنت لم تأخذ منها شيئا الى الآخرة ، لكنك حصلت والى الأبد على كل الكراهية ، وكل المقت من الجميع ، هذا ما حملته معك فى النهاية حقا ، حتى بعد أن تزول وتتبدد وتتحول الى حفنة من الرماد وتنتفى جثتك السمينة المترهلة ، التى طالما طالعناها تحمل سحنتك الكريهة ، وهى تطل علينا فى المؤسسة كل يوم .

تنهدت بأسى ، ورحت أشاغل روى الممرورة بالنظر الى طليعة الجنازة الواقفة تنتظر مرور القطار ، مثلما تنتظر نحن الواقفون قرب المؤخرة . كان الرجال ذوى بزات داكنة أنيقة ووجوه مفعمة بالحيوية ، تبدو عليها دلائل الخيرات والنعم . جلت ببصرى على الذين أنا بينهم ، كانت ملابسهم متواضعة ، جرى ارتداؤها كيفما اتفق ، وبدت لى ملامحهم متشابهة الى حد بعيد . اكتشفت أن بعضهم منشغل بالتفرس فى نساء المقدمة ، نقلت ناظرى الى حيث يتطلعون . ميزت زوجة المتوفى بين جماعة النسوة المتكومة الى أقصى اليمين ، بدت لى على البعد أكبر قليلا ، وهى متشحة بالسواد، فكرت أن المتطلعين اليها مثلى ، ربما كانوا يفكرون فيها خلال هذه

اللحظات كواحدة من الامتيازات الأساسية التي يحصلها المرء عندما يكون رئيسا بلجس ادارة مؤسسة كبرى كمؤسسة الطباعة الشعبية ، ولكن أين هي منه الآن ؟ ، وأين هو من أى امتياز دنيوى آخر طالما نهل منه وتمتع به ذات يوم ؟ . فكرت : أن الموت يشابه هذا القطار العابر الآن ، فهو عندما يجيء ويعبر لا يملك الانسان الا التوقف والامتنال له . انه هو وحده ، لا الحياة ، القادر على تحديد القيمة الحقيقية للبشر .

بدأت القاطرة تسرد عرباتها أمامنا سردا طويلا مملا ، تنحنج البعض ، وحاول آخرون سعالا مفتعلا يائسا ، ربما كنوع من الاحتجاج الفاشل على جبروت القطار ، أما أنا فبدأ ضيقى بمصنع الغاز الطبيعى الواقف الى جوارى يزداد ، بعد أن طالت فترة التشغيل واطلاق النواتج . حاولت الابتعاد عنه قليلا وأنا أقول لنفسى : آه لو يكف العمال عن تناول الفول وكميات البصل الرهيبة فى الصباح ؟ . أخذت أتحمس أنفى وأتهدد محوقلا ، وكنت قد فكرت فى الانسحاب من المكان كله الى الخلف ، لكن المكان كان مكتظا على نحو لا يمكن تصوره .

شعرت بعطش وجفاف فى الحلق وقلت لروحي : حتى جنازتك يا عرفى حلاوة ثقيلة على القلب كما السم ، الى آخر لحظة فى الدنيا وأنت مصر على مضايقتنا وقرفنا ، آكان يجب أن تزهد روحك وتموت فى هذا اليوم الحار من أغسطس الخانق الرطب ، آكان لابد أن نسير وراءك بكل هذا العرق اللزج المنساب منا ، تحت آتون الشمس ، وقد ترصدنا من عليائه وراح يشوى أدمغتنا ، وأقفيتنا ؟ . حاولت مواساة نفسى ، فقلت : اشغل روحك يا ولد باى شىء ؟ دقائق ويعبر القطار الى حال سبيله ، ونصل بعدها الى الجامع ، فنصلى على الميت ونروح لحال سبيلنا نحن أيضا .

بدأت في عد عربات القطار ، مراقبا حركة انسياب العجلات على الشريط الحديدي ، لكن سرعان ما انقطع استغراقى ، اذ برزت من جانب الطريق جنازة أخرى ، بدأت تتقدم في اتجاه جنازتنا عند المزلقان ، وكان من الواضح أن مقصدها هو مقصد جنازتنا ذاته : الجامع القريب في الضفة الأخرى من مجرى القطار ، حيث الصلاة على الميت صلاة الشفاعة والرحمة قبل الذهاب به الى مثواه الأزل .

كان النعش القادم بسيطا متواضعا للغاية ، فصندوق الميت من خشب قديم رديء الصنع ، لم يفلح اللحاف القطنى البالى المفروود عليه فى تغطيته تماما ، وكان المشهد مشكلا من أناس قلائل يصعب التكهن بحقيقتهم ، هل هم عمال حرفيون ؟ ، أم باعة جائلون ؟ . وخلف الرجال تسير جماعة من النساء ينتحبن فى صخب ، وراء أولئك الحاملين للميت . بدا المشهد كله أقرب الى مهزلة ، تؤدي على خشبة مسرح ، منه الى جنازة فعلية يسير فيها رجال ونساء حقيقيون ، وربما جاءتني هذه الفكرة ، من ذلك التعبير الذى طالعت على وجوه أعضاء جنازتنا ، وقد استداروا ليستجلوا حقيقة الأمر ، اذ كانت وجوههم تفصح عن تساؤل استيائى ، استنكارى ، وكأن القادمين بجنازتهم البائسة ، قد استباحوا لهم حرمة ، أو غصبوا منهم امتيازا مقصورا عليهم فقط .

همس صاحب مصنع الغاز الطبيعى قائلا : يظهر لى أنهم جماعة من المقطوعين ، لا اله الا الله يا أخى .

غمغمت زافرا ، وأنا أو من برأسى ، وقلت : آه . ورحت أنظر الى المقطوعين أولئك ، كانوا بدورهم يتأملون موكبنا بكثير من

الدهشة والانبهار حتى أن النسوة توقفن عن الصراخ والنشيج ،
وأرسلن أبصارهن ناحيتنا بتعجب . كانت نظراتهم الدهشة ،
المستغربة ، تشي بتساؤل آخر عن موتهم وموتنا الذى فاجأهم مظهره
من حيث لا يدرون .

ظل القطار يتهاوى على قضبانه بكامل راحته ، وثيلا ، داهسا
الوقت / وقتنا باستبداد يغيظ ، وبعد الصناديق البنية الحديدية
الضخمة التى عبرت فى البداية ، جاء دور الدبابات والعربات
المصفحة ، والمدافع المحمولة على عجلات .

ظل الناس يوزعون اهتمامهم على القطار حينما ، وعلى بعضهم
حينما آخر ، وكان هناك ما يشبه الشعور بالاثارة الخفية المشوبة
بالتحدى ، يرتسم على الوجوه الآن ، وجدتنى أسائل نفسى وأبتسم :
ترى : هل سنصل على الميتين معا ، أم سينتظر اللاحقون
السابقون ؟ ، وأظن أن الواقف الى جوارى كان يفكر فى ذلك أيضا
خلال تلك اللحظات ، فعندما التفت اليه ، وجدته مطرقا الى الأرض
وقد غاب فى تفكير عميق .

فى هدوء ، ولسبب ما ، انسل واحد من المشيعين فى مؤخرة
جنازتنا فجأة ، ووقف بين ناس الجنازة الأخرى فى صمت
ملتحقا بها .

بدا لى سلوكه - وان جاء تلقائيا - غامضا بعض الشيء ، قلت
لنفسى ، تعاطف ، شفقة ، أو ربما محاولة يائسة لكسر الملل حتى
يعبر قطار الحرب الطويل . رجحت أخيرا أن قرب موقعه من الجنازة
الأخرى ، هو الدافع وراء مسلكه هذا . على أية حال لم يبد أحد
من أصحاب الجنازة الصغرى أى رد فعل تجاه وجود الرجل بينهم

على هذا النحو المفاجيء ، بل وبدأ لى هو نفسه ، بملبسه ، وشكله ،
والتعبير الغاضب الصارم المرتسم على وجهه ، وكأنه واحد منهم ،
جاء منذ البداية معهم ، ومازال معهم ينتظر عبور القطار .

لم تمر لحظات أخرى قليلة ، الا وكان رجل آخر قد انشق
عن جنازتنا والتحق بزميله السابق . وهكذا بدأت مؤخرة جنازتنا
تشهد تسربا خفيا ، سرعان ما تحول الى هروب جماعى ملموس ،
بدا لى أشبه بلعبة قديمة كنا نلعبها أيام المدرسة ، فعندما كانوا
يحشدوننا فى الفناء الواسع ، بمناسبة ما من المناسبات الحكومية ،
ويبدأون فى القاء الخطب السياسية الدعائية المملة علينا ، كنا
نسلى أنفسنا نحن الواقفين فى مؤخرات الطوابير ، فننتقل من
طابور الى آخر ، بينما الخطباء سادرون فى خطبهم ومواعظهم
السقيمة ، وكان الأمر يتمخض فى النهاية عن طابور طويل واحد فى
جانب من الفناء يصيب الجالسين على المنصة بالارتباك والضيق ،
ويدفع مشرفى النظام العام فى المدرسة الى نهرنا ، وتهديدنا بالضرب ،
حتى نرعوى ونعود الى طوابيرنا الأولى مرة أخرى .

تذكرت ذلك وأنا أرقب الثغرات التى تنفتح وتكبر وتتسع
فى مؤخرة جنازتنا لتملا فراغ الجنازة الأخرى ، حتى أن مصنع
الغاز ، تركنى فجأة وحيدا ، وظهر بالقرب من النائحات فى الجنازة
الصغرى ، والتى ما عادت صغرى الآن .

شعرت بدرجة من القلق والتوتر ، اذ بدا لى الفراغ حولى
أشبه بهوة انزلقت فى داخلها رغما عنى ، ووجدتنى أدخل خيمة من
الغربة الغامضة ، واعترانى ذلك الشعور الموحش بالضيق ، الذى
يلتهمنى عادة فى كوابيس ليلية ، تعاودنى بين الحين والحين ، فأرى
نفسى فيما يرى النائم ، وقد سرت وسط زحام الناس فى الطريق

عاريا حافيا ، بلا هدم تغطيني وتستتر عورتى ، أو نعل أنتعله كما
الآخرين .

حاولت الاقتراب بنفسى ، لأنضم لأهل المقدمة فى جنازتنا ،
لكنى لم أستطع ، شئ ما كان يباعد بينى وبينهم ، بالأحرى خفت
أن أقرب منهم ، اذ ظننت أننى لابد سأكون بملبسى وشكلى بينهم ،
كدجاجة ريفية اندست داخل مجموعة من الطواويس . توقفت
حائرا أتلفت حولى فى يأس ، اصطدمت عيناي بعيون الآخرين الذين
غادرونى الى الجنازة الأخرى ، شعرت أن نظراتهم تشجعنى ،
تحفزنى ، تستحثنى ، ووجدتنى أرتبك قليلا وأنا أزدرد ريقى
الجاف ، لكننى فى النهاية وجدت قلمى تتحركان ببطء نحوهم .

قمر ينظر اليه

بدت السماء فسيحة رائقة في تلك الليلة الصيفية الحارة
حتى يظن أن اتساعها يحتمل ويتقبل أكثر من قمر ، لكن لما كان
للأرض قمر واحد يدور حولها ، فقد استأثر بذلك الفضاء المترامي
الغامض ، وبدأ في عليائه كدرة مبهرة صعبة المنال ، تضيء وتشع
كينبوع ضياء لا يدرك منتهاه .

وهكذا لم تستطع بنايات المدينة العالية ، المكلفة بمهرجان
الاضواء ، ولا ضجيج السيارات المتدفقة على الكبارى ، الحيلولة
بين القمر وبين تلك الانتظار المتطلعة الى طبق البلور الأشهب
العجيب ، وكانت الزوجة الشابة أول من لاحظ هلتيه وطلوعه
فقالت :

— قمر يجنن .

راحوا جميعا يتأملون الإبهار العالى المنير للبدر ، وهمس
ذلك الذى تمنى البوح بوجوده لمن باحت بجنون القمر وهو يزفر
قائلا :

— فى بالى شبيه له على الأرض .

رشفت الشابة رشفة من كوب الماء الموضوع أمامها على الطاولة ، وأشاحت بعينيها بعيدا ، لتراقب سريان مياه النهر ، قريبا من مجلسهم في المطعم الليلي الفخم ، بينما هل عليهم طفل صغير حاملا بيده عقودا من الفل الأبيض الشاهى ، عرض عليهم بضاعته بتوسل ورجاء ، نظر إليه بعضهم بلا مبالاة ، بينما أثر البقية مواصلة سيرة القمر ، وكأن الصغير بلا وجود ، فقال الشاعر بينهم ، وقد ظل مشربيا برقبته يتطلع الى السماء ، وقد جاشت في جوانحه ، نشوة ملتذة وفيضان من الشعور :

— أفيض من نور ؟ أم آية من لجين ؟

أثر الطفل الانسحاب قليلا والوقوف في الركن غير بعيد عن مجلسهم ، على أمل أن يتحين فرصة مناسبة فيبيع لهم مرة أخرى ، إذ كان يحلم بقروش ينهى بها جولته المسائية ليذهب بعدها وينام ، وهكذا تمنى له أن يسمع الزوجة المجوز ، وهى تعلن بسعادة غامرة ، بعد أن تذكرت جهودها الناجحة في استعادة زوجها الى حظيرة الزوجية اثر فشله في مغامرة عاطفية سريعة قبل وقت قريب :

— الحقيقة ، أنا احب القمر عندما يكون هلالا ، لأنه يذكرنى دوما بالمرّة الاولى التى خرجت فيها مع زوجى ، عندما كنا مخطوبين ، كان ذلك ذات مساء ، فى مطعم صغير قريب من صحراء مصر الجديدة ، قبل أن تزدهم تلك الضاحية بالبنائات ، ويلتئم الاسمنت صحراءها ، وقتها كنا مازلنا شابين مخطوبين ، نرحلنا نتطلع من الشباك القريب لجلستنا ، ففاجأنا الهلال كعروس نائنة

فى زفة من النجمات ، وغمرنا فيض من شعور جارف وتغاهدنا على
الوفاء ، طالما بقينا زوجين فى هذه الدنيا . راحت تضحك مقهقهة ،
وكأنها حكّت طرفة تدعو الى المرح والسرور ، أو كأنها تسدعى
لنفسها ذكرى قديمة لم تغب .

أخذ الولد يعيد ترتيب عقود الفل على ساعده اللين ،
وفكر : آه لو أبيع اثنين أو ثلاثة ، أكل بعدها شيئا سريعا ثم اذهب
الى امى فانام .

فتح فمه تنأب ، بينما صورة فراش طرى تروح وتجىء فى
مخيلته ، وربما لهذا ، لم يتسن له ملاحظة وجه السيدة البدينة
المكفر ، وهى تسدد نظرات متبرمة الى زوجها القائل :

— اما أنا فلاعشق لى بالقمر ، الا عندما يستوى ويكتمل ،
فيكون بدرا ، وكأنه امرأة جميلة فى أوج نضجها ونضرتها ، فيهتف
هاتف من داخل المرء عندما يطالعه ، يلح عليه ويدعوه : الآن . .
الآن ، وإلا لن يكون أبداً ، فالبدر هو منتهى الكمال ، وشارة
بالغة فى معنى الزمان ، ودعوة للنهل من لذائذ الحياة .

زفرت عروس لم يحل الحول عليها بعد ، كانت قد فقدت
جنينها منذ شهور قليلة فائتة ، بعد معاناة المخاض ، وقالت بصوت
قطعة حبيسة تموء :

— يأخذنى القمر كثيرا ، عندما يكون شاحبا حزينا ، وقد
اكتسى بغلالة شفيفة من السحاب ، فيتبدى من بعده معتما مضيقا
فى آن ، ويأخذنى بعيدا بعيدا ، فأفكر فى القدر المخبوء ، والسر
المجهول ، ولعبة الأيام مع الحياة والعدم ، وأظل سارحة مع

تأملاتي ، وهو يختفي ويسنين من خلف غلالته السحابية وكأنه
يفضض لي بحكايات وحكايات عن هذا الكون العجيب الذي
نعيش فيه .

كان الولد قد مل الوقوف ، فتردد قليلا ، قبل أن يقترب منهم
طارحا عليهم فله مرة أخرى ، عليهم يتناحوا منه ولو عقدا واحدا ،
وكان خلال ذلك يتشاءب بجد محاولا طرد النوم بعيدا عن مقلتيه ،
بينما يهجس لروحه بأن أجمل الأعمار كلها ، ذلك الذي يكون رائعا
في السماء على هيئة نصف رغيف شهى خرج طازجا من بيت النار .

مائلة الرحمن

انكسرت الشمس ووزعت شعاعاتها أرجوانا راحلا في الأفق ، فبدأ له المشهد القاهري باذخا صادما ، بعد أن خرج لتوه من محطة القطارات الرئيسية في رمسيس ، وانفتح على ميدانها الصاخب الضاح ، بطرقه المحتشدة ، وسياراته المارقة ، وكل تلك البناءات العالية وذلك العرمم البشرى الرائح الغادى دون انقطاع .

تناوبته مشاعر الفرح والفرح ، الذهول والرغبة ، اذن هو يونس جديد وهذا هو الخوت ، لكنه سيمضى في الجوف الغامض المثير ، الى أبعد من أيام يونان الثلاثة ، وسيبقى في تلك المدينة المعبودة التي طالما رغبها واشتاق لرؤيتها، وحلم مرارا بالحج إليها ، الآن لم يعد حجا ولا تقديسا ، اذ ان الحظ ناداه ، ليضع قدمه بها ويثبتها ، بعد أن استدعاه ابن عمه وسميه من أعماق قريته الجنوبية البعيدة ، ليجيء الى تلك المدينة ، فيكحت القصب وينضم بذلك الى الفريق العامل في محل عصر جنة رضوان ، والمكون من صاحب المحل بليدياته المعلم « أخنوخ » وابن عمه « جرجس » وآخرين سيعرفهم عندما يصل اليهم ان شاء الله .

سار خطوات مبتعدا عن المحطة ، توقف ، دب يده في الجيب السيل لجلبابه ثم أخرج الورقة المكتوب بها عنوان جنة رضوان .

استأنف المسير مرة أخرى ، بعد أن سأل مرز دانتين وثلاثا ،
وتيقن من اجماع جميع المسئولين بنسبة ٩٩٩٪ على أن
الوصول للجنة إياها يوجب عليه الدخول أولا في الشارع الكبير
المسمى شارع شبرا ، ثم ترك أول وثاني وثالث محطة اتوبيس ،
يمرّج بعدها يساراً وهناك يجدد السؤال ، فيحصد بعده الاجابة
الشفافية .

قبل أن يصل لمحطة الاتوبيس الثالثة ، استوقفه تفصيل
صغير من لوحة الشارع الكبير ، كان مشهد ذلك التفصيل ، قد
تكرر قبل ذلك عدة مرات ، طبلبات عديدة مرصوفة على الأرض،
صفت عليها صحون وأكواب المأكول والمشارب ، فكر في المتحلقين
حول تلك الموائد ، خمن أن المناسبة ربما كانت مآتم قاهرية ، لكن
كان هناك الغروب ، وعشاء المآتم يكون عادة ساعة العشاء ،
اذن ليست هذه موائد بذلت على شرف موتى ، كما أنه لا تواكبها
مظاهر الحزن والحداد . ود السؤال من باب الفضول ، لكنه تراجع
بعد تفكير ، فهو لا يستطيع حسابان رد الفعل القاهري فقد يخرق
أذنه وقد لا يرضيه ، غير أن شهوة المعرفة أخذت تحصره وتحاصره،
أو فلنقل مباشرة وبلغة المثقفين ، أن الظاهرة الأدبية فرضت
نفسها عليه بعنف ، وشدته للفعل والحراك ، لذلك وكمدخل أولى،
قرر تكرار السؤال عن جنة رضوان ، ومنه يتطرق الى حكاية
الاكل في السكك .

مال على واحد من المقرفين أمام المائدة ، فسأله وهو يمد
له يده بورقة العنوان ، رد عليه الآخر بسرعة من قم واسع
أستولى على حصة الأسد من وجه ممصوص ، وقال في تعجب
يشوبه ضيق :

— طيب . ميل الأول وكل ، ويعدها أهم معك وأسأل .
نقر يدلنا . أو يدلك لحد هناك .

تلكاً قليلاً وهو راغب ، فلقد كان جائعاً تعباً ، منهكاً ،
بسبب نفاذ زوادة الفايش التى التهمها فى القطار بعد ان غمستها
بالشاي ، وذلك الجهد الاتفعالى الهائل المبذول فى استقباله
للقاهرة لأول مرة فى حياته ، ثم كل ذلك السير فى شارع شبرا
لأجل جنة رضوان ، حسم الأمر ، وبرك على الأرض الى جانب
الجالسين ، وما أن تعالى آذان المغرب من عدة مآذن ، حتى هجم
على المائدة مع الهاجمين ، بعد أن شجعه مقترح الدعوة المسئول
بقوله :

— مد يدك طوالى ، بسم الله .

وزع نشاطه بين التهام الارز والطبيخ والمخلل ، تأمل
الجالسين حوله ، بدوا له دون أية علامات فارقة ملحوظة ، سواء
من حيث الشكل أو اللبس ، وجوه كوجهه تقريبا ، ذلك السمار ،
ذلك الاصفرار ، تلك العيون المكتحلة بالهم واليأس ، تلك
الجلابيب ، أو السراويل المحتوية أجسادا لا حول ولا قوة لها ،
آثر الا يتحدث أو يسأل ، رغم فضوله ورغبته فى الكلام والمسايرة
أثناء الأكل ، فهذه متعة لا تدانيها متعة ، سوى تدخين سيجارة
فى الفراش بعد أداء واجباته العائلية فى الليل ، لكنه آثر التمسك
بحكمة ابن عمه الذى نصحه بها قبل أن يهبط هذه المدينة :
« لما تكون فى مصر ، أقصر الكلام ، يعنى كلمة ورد غطاها
والسلام » .

وهكذا راح يزدرد طعامه صامتا على مضض ، لكن سرعان
ما دفعه الداعى للوليمة ، والذى جلس بجانبه الى خرق ناموس

ابن العم العزيز الحكيم . فاضطر للكلام والرد ، بعد أن سألـه
الرجل عن أصله وفصله ، وأوله من آخره ، وبعد أن أجاب ، وكرد
فعل سريع لذلك ، قدم له الرجل بطاقة تعريف شفاهية سريعة
وهو يقول :

— أنا الآخر من بحرى ، من نواحي كفر الزيات ، أرزقى على
باب الله ، يوم شغل وعشرة من غير ، وكل رمضان أقول لروحي
انزل يا ولد يا محمود وير نفسك في مصر ، لأن رمضان فيها رزقه
وأوسع وخيره عام . طب ، تصدق وتؤمن : من أوله لحد الآن ،
صار أكلى كل يوم في مطرح شكل ، عموما الحمد لله .

بدت الفرصة مواتية له في هذه اللحظة فسأل :

— يعنى كل يوم في رمضان ، والموائد عمالة وقت المغرب ؟
رد محمود بلهجة العارف :

— أى نعم ، يا أخى الميسورين ياما هنا ، لكن الغلابة أكثر
وفى كل ناحية من البلد تلقى الأكل وقت المغرب ، والموائد محطوطة
لكل من هب ودب فى سبيل الله ، لذلك اسمها موائد الرحمن .

— آه ..

قال وواصل مضغ ما فى فيه .

لم يمض وقت طويل ، الا وكانت الموائد قد فرغت تقريبا مما
عليها ، عندئذ ، صاح رجل جالس على رأس المائدة ، بدا مختلفا
عن الآخرين فى شكله وملبسه ، وقال بلهجة تشبه الامر :

— هموا يا اخوان ، واخلونا نخطف صلاة المغرب جماعة .
قبل ما يكبر العشاء ، يعنى خلصوا وهموا للوضوء فى الزاوية .

أسقط فى يده ، كيف سيصلى المغرب معهم وهو قبضى ،
شعر بمغبة تهوره وتسرعه فى الجلوس والاكل ، بدأ يشعر بالحرج
والندم ، فماذا سيفعل الآن ؟ هل ينسل فى هدوء دون أن يشعر به
أحد ؟ أو يتذرع بأية حجة لذلك المحمود ويمضى فى سبيله ؟ سيقول
له مثلا أنه سيصلى فيما بعد ، فهو يخشى الوصول الى الجنة
رضوان متأخرا فلا يجد ابن عمه المنشود ، حاول ترتيب حكاية
مقبولة ، تحفظ له ماء وجهه الشحيح أصلا ، بدأ فى التنحنح أولا ،
حتى يفسح المجال لكلامه المفتعل ، لكن محمود أوقف بدايته التى
لم تبدأ ، وقال وهو يمضغ متلذذا قطعة تمر مبلولة ، نجح فى
اصطيادها بأصبعه من قعر كوب نقيع التمر الذى أجهز عليه منذ
لحظات :

اسمع ، أنا شوفى أننا نترك حكاية صلاة المغرب ، ونهم
ننهض لنسأل عن مكان جنة رضوان ، أنا مستعد أدليك بنفسى
لحد هناك .

وافق جرجس بسرعة ودون أية شروط ، لكنه تساعل فى خجل
وهو يشير الى الرجل والجالسين :

— لكن .. الرجل .. والناس ؟

ضحك محمود وقال وهو يرفع طاقيته عن رأسه قليلا
ويهرش قفاه :

— الله ، وهو ماله بصلاتنا ، هل هو ولى أمرنا ، ثم ان

الرجل كلف نفسه بالاكل لاجل ينويه الثواب ، وبصراحة انت وانا
عملنا ما علينا ونولناه الثواب .. هاهنا .. ها .

ابتسم بدوره ، هب واقفا بمجرد أن وقف محمود ، سارا
مبتعدين عن المكان ، سأل محمود له عن العنوان ، فحصل من
الاجابة على الإجماع ، إذ بات من المؤكد أن جنة رضوان في مكان
جنة رضوان المعروف له من قبل

أخرج محمود سيجارتين ، قدم واحدة له ودس الأخرى
بين شفقيه ، شعر جرجس وهو يسحب نفسا عميقا من السيجارة
بعد اشغالها بتلذذ عميق ، قال فجأة لرفيقه :

— بالمناسبة ، أنا اسمي جرجس !

نكس محمود أذنه اليمنى بشاهده ، تشاءب بملل ، بدا غير
مكترث بما سمعه وهو يقول :

— تشرفنا يا عم جرجس ! .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١ - نونة الشعفونة	٥
٢ - الخصبة والجديفة	١٣
٣ - امرأة على العشب	١٩
٤ - الزمن الجميل	٢٧
٥ - لوكيميا	٣٩
٦ - العاشقة	٤٧
٧ - ما جرى لبوسى	٥٣
٨ - زينات فى جنازة الرئيس	٦١
٩ - أم شحنة القى فجرت الموضوع	٧٣
١٠ - بسممة الموت	٨٥
١١ - أصل الحكاية نمرة	٩٧

الموضوع	الصفحة
١٢- صنعة لطافة	١٠٧
١٣- بحر الأعالي	١١٧
١٤- التكهن	١٢٣
١٥- المشهد	١٢٣
١٦- قمر ينظر اليه	١٤١
١٧- مائدة الرحمن	١٤٥

صدر من هذه السلسلة

- | | | | |
|-------------------------|-------------|-----------------------|----|
| ● الرجل القاسى | (قصص) | فتحى خانم | ١ |
| ● دموع رجل تافه | (قصص) | عبد الرحمن فهمى | ٢ |
| ● الجميع يربحون الحائزة | (قصص) | أبو المعاطى أبو النجا | ٣ |
| ● بالأمس حلمت بك | (قصص) | بهاء طاهر | ٤ |
| ● رباعيات | (قصص) | شكرى عياد | ٥ |
| ● من قتل الطفل | (مسرحيات) | عبد الغفار مكاوى | ٦ |
| ● منتصف ليل الغربة | (قصص) | جمال الفيطنى | ٧ |
| ● رثيق السكين | (أقاصيص) | محمد المخزنجى | ٨ |
| ● وعلى الأرض السلام | (قصص) | فاروق خورشيد | ٩ |
| ● الأثسواق والاسى | (رواية) | عبد الحكيم قاسم | ١٠ |
| ● والبحر ليس بملان | (رواية) | جميل عطية ابراهيم | ١١ |
| ● ان تنحدر الشمس | (قصص) | مسحر توفيق | ١٢ |
| ● لا تسقنى وحدى | (رواية) | مسعد مكاوى | ١٣ |
| ● كهف الاخيار | (قصص) | شكرى عياد | ١٤ |
| ● محطة المسكة الحديد | (قصص) | الكواثر الخراط | ١٥ |
| ● حصار القلعة | (شعرية) | محمد ابراهيم أبو سنة | ١٦ |
| ● سارق الكحل | (قصص) | يُحيى حقى | ١٧ |

١٨	محمود عبد الرحمن	(قصص)	● أربعة فصول شتاء
١٩	بهاء طاهر	(قصص)	● أنا الملك جئت
٢٠	عبد الرحمن مهدي	(قصص)	● تاريخ حياة صنم
٢١	عبد جبير	(قصص)	● الوداع : تاج من العشب
٢٢	محمود الورداني	(انطبع)	● التجوم العالية
٢٣	عبد الرحمن الشرقاوي	(رواية)	● قلوب خالية
٢٤	ابراهيم عبد المجيد	(قصص)	● الشجرة والمصاير
٢٥	سليمان فياض	(قصص)	● عطشان يا صبايا
٢٦	عبد الحكيم قاسم	(رواية)	● طرف من خبر الآخرة
٢٧	جار النبي الطر	(قصص)	● طعم القرنفل
٢٨	شفيق مقار	(رواية)	● السحر الأسود
٢٩	حسن عبد الفضيل	(رواية)	● تعلق الجدار الالمس
٣٠	محمد المنسي قنديل	(قصص)	● احتضار قط عجوز
٣١	عبد الله خيرت	(قصص)	● رحلة الليل
٣٢	عالية مدوح	(رواية)	● حبات التفالين
٣٣	محمود دياب	(مسرحية)	● أرض لا تثبت الزهور
٣٤	عبد الفتاح الجبل	(قصص)	● الخسوف
٣٥	محمود عبد الرحمن	(مسرحيتان)	● ما أجملنا
٣٦	يوسف القعيد	(قصص)	● لم يعد الضحك ممكنا
٣٧	فاروق خورشيد	(قصص)	● جبال السلام
٣٨	أحمد الأسينغ	(قصص)	● العنان الصيفي

٢٩	ابراهيم اصلان	(قصص)	● يوسف والرداء
٤٠	يحيى عبد الله	(قصص)	● مسألة ابني
٤١	يوسف أبو رية	(قصص)	● مكس الريح
٤٢	محمد جبريل	(قصص)	● هل
٤٣	نعمان عاتسور	(مسرحية)	● عفاريت الجبابة
٤٤	عائد خصيبك	(قصص)	● الطائر والنهر
٤٥	علاء الديب	(قصص)	● زهر الليمون
٤٦	أمين ريسان	(قصص)	● الطواحين
٤٧	سليم فريد	(رواية)	● راحة البحر
٤٨	عاطف الفري	(مسرحية)	● حضرة صاحب الدولة
٤٩	خيرى شلبي	(قصص)	● اسباب للكي بالنار
٥٠	بدر الديب	(قصص شعري)	● السين والظلم
٥١	عبد الحكيم قاسم	(رواية)	● ايام الانسان المبعدة
٥٢	محمد زغراف	(قصص)	● الملك الابيض
٥٣	محمد البساطي	(قصص)	● هذا ما كان
٥٤	جيرار ابراهيم جيرا	(رواية)	● الغرف الأخرى
٥٥	طلعت فهمي	(قصص)	● أغنية حب حزينة
٥٦	ربيع الصبروت	(قصص)	● انكسار الحروف
٥٧	عبد الوهاب الأسواني	(رواية)	● اخبار الدراويش
٥٨	فهمي عبد الفتاح	(قصص)	● النيل والخصب
٥٩	نهاد شريف	(رواية)	● الشيء

٦٠	عبد العزيز مشري	رواية (● الفيوم ومنابت الشجر
٦١	فؤاد التكرلي	مسرحدات (● الصخرة والطوف
٦٢	نعيم عطية	(قصص)	● نورسان أبيضان
٦٣	سعيد الكفراوي	(قصص)	● مسير العفورة
٦٤	محمد سليمان	(قصص)	● الوجه الآخر للقبر
٦٥	محمد المخزنجي	(قصص)	● مسفر
٦٦	سليمان التسطي	(قصص)	● رجال من الرف العالي
٦٧	رضوى عاشور	(قصص)	● رايت النخل
٦٨	ليلى عثمان	(قصص)	● ليلة حب مجنونه
٦٩	بدر الديب	(قصص)	● المستحيل والقيمة (تجربة في الديالكتيك)
٧٠	توفيق الحكيم	(مسرحية)	● النعيم المأم
٧١	محمد عبد السلام المصري	(قصص)	● شمس بيضاء
٧٢	عبد الحكيم قاسم	(قصص)	● ديوان الحقائق
٧٣	أحمد زغلول الشيطي	(قصص)	● شتاء داخلي
٧٤	وجيه الشريتلي	(رواية)	● حكاية ثارنا
٧٥	فهد العنبري	(قصص)	● الأعان صغير
٧٦	محمد البساطي	(قصص)	● منحنى النهر
٧٧	أبراهيم نهس	(قصص)	● الطشق أوله القرى
٧٨	أبراهيم عبد المجيد	(قصص)	● أغلاق التواط
٧٩	هالة البحري	(قصص)	● أجنحة الحصان

٨٠	يوسف أبو رية	(قصص)	● وش الفجر
٨١	ممدوح عدوان	(مسرحية)	● حكي القرايا وحكي السرايا
٨٢	جمال الغيطاني	(قصص)	● من دفتر العشق والغربة
٨٣	أحمد الشيخ	(قصص)	● البحر الرمادي
٨٤	محمد عبد السلام العمري	(قصص)	● بستان الأزيكية
٨٥	خيري شلبي	(رواية)	● لحسن العتب
٨٦	جميل عطية إبراهيم	(قصص)	● أحاديث جانبية
٨٧	محمد أبو العلا السلاموني	(مسرحية)	● رجل في القلعة
٨٨	سعيد الكفراوي	(قصص)	● مجرى العيون
٨٩	أيلى الشربيني	(قصص)	● الكرز
٩٠	أدوار الخراط	(قصص)	● ساعات الكبرياء
٩١	محمد سلماوى	(مسرحية)	● سالومي
٩٢	نبيل عبد الحميد	(قصص)	● غزو الأرانب
٩٣	حسام فخري	(قصص)	● أم الشعور
٩٤	عبد الفتاح رزق	(قصص)	● العودة من داخل الرأس
٩٥	إبراهيم أصلان	(قصص)	● بحيرة المساء
٩٦	محمد سليمان	(قصص)	● قراءة في جريدة الصباح
٩٧	نعيم عطية	(رواية)	● قبلة الريح
٩٨	أحمد سويلم	(م . شعرية)	● الفارس
٩٩	فتحي أبو ربيعة	(قصص)	● بقايا العمر
١٠٠	أحمد الحوتى	(مسرحية)	● الزائر
١٠١	فؤاد قنديل	(قصص)	● شدو الابل والكبرياء
١٠٢	محمد محمود عبد الرازق	(قصص)	● كويرى التاريخ
١٠٣	محمود الورداني	(قصص)	● في الظل والشمس
١٠٤	رضا البهات	(قصص)	● طقوس بشرية

- اللبس الخفيف (قصص) احمد القشبال ١٠٥
- بقع القلب (قصص) عبد المنعم الباز ١٠٦
- ديوان البقر (مسرحية) محمد ابو العلا السلاموني ١٠٧
- غوص مدينة (قصص) مصطفى الاسمر ١٠٨
- طارق ليل القلعات (قصص) محمد حافظ رجب ١٠٩
- حكايات الام تفسحة (رواية) عبد المنعم عبد القادر ١١٠
- صندوق الدنيا (قصص) محمد عبد الرحمن المر ١١١
- اخناتون (م - شعرية) شوقي خميس ١١٢
- حديث المضد (قصص) محمود حنفي ١١٣
- عندما ترتفع الهارمونيكا (مسرحية) محمد فريد ابو سعدة ١١٤
- امرأة ورجل (ن - قصصية) فوزية رشيد ١١٥
- صالحة (رواية) عبد العزيز مشري ١١٦
- هكذا تكلمت الاحجار (رواية) سمير عبد الباقي ١١٧
- سوق العيد (قصص) محمد جبريل ١١٨
- للروح غناها (قصص) سيد الوكيل ١١٩
- متعلق من عرقويه (مسرحية) رافت الدويري ١٢٠
- شهر زاد (مسرحية) وليد منير ١٢١
- عائشة الخيطة (رواية) صلاح والي ١٢٢
- ضلع اعوج (رواية) نعمات البحيري ١٢٣
- انها تجرى الى البحر والبحر ليس بملان (رواية) فاروق خورشيد ١٢٤
- الشمس تكون باردة احيانا (رواية) وجيه الشربتلي ١٢٥
- حفل زفاف في وهج الشمس (قصص) مصطفى نصر ١٢٦
- درس الاميبا (رواية) هدى حسين ١٢٧
- قلما البحر (قصص) ربيع الصبروت ١٢٨

- دولة ايوب (مسرحية) محمد حسيب القاضي ١٢٩
- حيرة الفرعون (قصص) عبد المنعم عبد القادر ١٣٠
- نونة الضعفونة (قصص) سلوى بكر ١٣١

الأعداد القادمة

- الظافر صغيرة جدا (قصص) فهد العتيق
- عقيلة (م - شعرية) بيرم التونسي
- الأيام السعيدة (قصص) نعيم عطية

الأعداد المتأخرة

- المعذبون في الأرض (رواية) طه حسين
- قطرة الذي كفر (رواية) مصطفى مشرفة
- خيوط العنكبوت (رواية) ابراهيم عبد القادر المازني
- ابراهيم الثاني (رواية) ابراهيم عبد القادر المازني
- نائب عزرائيل (رواية) يوسف السباعي
- فساد الأمكنة (رواية) مبرى موسى
- قصص مختارة (قصص) يوسف ادريس
- أغنية الرياح الأربع (دراما شعرية) علي محمود طه
- اضلاع الصحراء (قصص) ادوار الخراط

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف
- مكتبات الهيئة
- معارض الكتاب بداخل مصر والخارج
- المعرض الدائم للكتاب
- مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٤٩٣٥

ISBN — 977 — 01 — 6111 — X

نادرة هي الكتابات القصصية، في زماننا التي تستطيع أن تكون «حضوراً» في الحياة و«فعلاً» في الواقع وأن تكون في الوقت ذاته تنغيماً على مقامات الكتابة، مثلما نجد في كتابات سلوى بكر. ونصوصها القصيرة بوجه خاص.

هنا سوف نلتقي بشخص (شخصيات!) ثلاثية الأبعاد، يمكنك أن تمد أصابعك وأن تتحسس لحمها الخام وأن تشم رائحتها وأن تشعر بحضورها يزاحم الهواء والضوء أمامك؛ وسوف تلتقي بالمعنى أو بالمعاني «محمولاً» على صدر الحياة الشخصية المتجسدة بشراً أو مواقف أو تأملات؛ تماماً مثلما سوف تلتقي بالكتابة من فوق منصة الماضي المكتمل (يلخصها الفعل الناقص: كان)؛ أو ستلتقي بالكتابة تطل عليك من على الحافة الفاصلة بين «الآن» وبين ما يوشك أن ينهمر علينا من الزمن القادم أو من الحضور «الآتي» بجسده الفعل المضارع القائم دائماً كأنما الوجود «مصدر» مستمر يتخلق من فوره، أمام عينيك على الدوام!

نختار هذه النصوص القصيرة من سلوى بكر لكي نعيد اكتشاف ما عشناه في الواقع، وفي الكتابة!

736
399

Bibliotheca Alexandrina



0534897

